روايات الهلال

في عشق جيفارا

مدونة ابو عبدو

الكاتبة الكوبية: آنا مينانديس

ترجمة: محمد عيد إبراهيم

5379

سلسلة شهرية لنشر القصص العربي والعالمي تصدر عن مؤسسة دار الهلال

رئيس مجلس الإدارة
غالي محمد

رئيس التحرير
سعد القرش

مدير التحرير
هالة زكي

المستشار الفني
محمود الشيخ

سكرتير التحرير
وجدان حامد

الإدارة
القاهرة: ١٦ شارع محمد
عز العرب بك (المبتديان سابقا)
ت: ٢٣٦٢٥٤٥٠ (٧خطوط).
المكاتبات: ص.ب: ٦١ العتبة.
القاهرة. الرقم البريدي ١١٥١١
. تلغرافيا: المصور. القاهرة
ج.م.ع.
تلكس:
hilal u n ٩٢٧٠٢ Telex
فاكس: FAX: ٢٣٦٢٥٤٦٩

البريد الإلكتروني: helalmag@yahoo.com

بريد الاشتراكات: subscription_dep@yahoo.com

ثمن النسخة
سوريا ١٢٥ ليرة -
لبنان ٨٠٠٠ ليرة -
السعودية ١٢ ريالا-
البحرين ١,٢ دينار-
قطر ١٢ ريالا -
الإمارات ١٢ درهما -
اليمن ٥٠٠ ريال -
فلسطين ٢دولار

تصميم الغلاف: محمود الشيخ

الاشتراكات
قيمة الإشتراك السنوى ٩٦,٠٠جم داخل جمهورية مصر العربية تسدد مقدماً نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية- البلاد العربية ٤٠ دولاراً - أوربا وأسيا وأفريقيا ٤٥ دولاراً - أمريكا وكندا والهند ٥٠ دولاراً - باقى دول العالم ٧٥ دولاراً
القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دار الهلال ويرسل لإدارة الإشتراكات بخطاب مسجل كما يرجى عدم إرسال عملات نقدية بالبريد

الإصدار الأول/ يناير ١٩٤٩

طبع هذا العدد بأحبار باكين

باكين

الكتاب: عشق جيفارا
المؤلف: آنا ميناندس
ترجمة: محمد عيد إبراهيم
التصنيف: رواية
الناشر: روايات الهلال - دار الهلال
رقم الإيداع: ١٤٨٩٦ / ٢٠١٥
الترقيم الدولى: 978-977-07-1712-7

في عشق جيفارا

للروائية الكوبية: آنا ميناندس
ترجمة: محمد عيد إبراهيم

هذه ترجمة كاملة لرواية

Loving Che

By: Ana Menendez
London, 2004

أينما أسافر، أقضى يوم رحلتى الأخير بالجزء القديم من البلدة، أتلبّث ساعات فى المحلات العتيقة بأرففها المغبّرة، ولا يهمّ المكان بأىّ وجهة من العالم، حيث تبدو المجلات والكتب القديمة والصور المصفرّة مكوّمة إلى أعلى. أغامر متوترة، علّ حفرى فى ذكريات الآخرين يلطّف مخاوفى ليلة الرحيل. فصور الغرباء تجلب عندى سكينة هيّنة، وقد كدّستُ عبر سنين مجموعة كبيرة منها تزخر بالمتطلّعين فى جدّية أو ترسُم لحظة الكاميرا وقد خطر على بالى أن معظم الصور القديمة تحمل ظلاً عميقاً على الأفواه، مما يؤكد تمثيلها لذوات أصحابها الحقّة. وفى بعض الليالى، حين تهبط ساعة الكآبة، أستخرج صورة من عندى فأتخيّل الغريب الملتقَط فيها عمّة عجوزاً نصف منسية، أو جدّة تدخّن سيجارة من مبسَم فضيّ طويل. لكنى أعرف أنى ألعب مع التاريخ. فهذه الصور، ضمن تخيّلاتي، عبارة عن أسرار شخصية، بكماء صامتة إلى الأبد، بما بيننا من سنين.

***

من زمان وأنا أهتم بالصور التى التقطها المنفيون لبلدهم كوبا. أؤطّرها أو أرتّبها بألبومات، لأستخرجها بين حين وآخر مع اجتماعى بالصحاب. وفكّرتُ فى إقامة معرض متنقّل لهذه الصور، واستطعتُ تأمين تمويل للمشروع. لكنى وقعتُ فى مماطلات ومتاعب أخرى. فقد ارتعبتُ ألا يتخلّى عدد من العائلات عن صورهم، وإن لأيام. وحين وافقتُ، بلهفة بريئة، على قبول صور المنفيين الفارّين من باتستا، وضعتْ نوازعى السياسية محل استفهام فباء المشروع كلّه بالفشل.

ودون توهّم تخلّيتُ عن مخطّطاتي، وتوصلتُ لتفسير أن هذا الولع بالماضى هو ما يدمّر الكوبيين. بدا لى أن ميامى فى تلك الفترة تعيش بالعكس. فهم يطلقون أسماء المفقودين على قصصهم؛ وتحمل محطات

الراديو المسعورة الأسماء التى يسمعونها فى كوبا، كأنهم أبناء مجانين لعائلة برزّت ذات يوم. بدا لى هذا الشغف اللانهائيّ بالماضى ضرباً من الجنون؛ فالجميع يحيون فى ملجأ، منفيين عن الحياة، ولا يجرؤ أحد على التصريح بذلك.

وربما تكون هذه النظرة الماضوية للمنفىّ (المنفىّ الكوبىّ خصوصاً، فهو هستيرىّ ويسهل تشويهه) ترياقاً لنوع جديد أشدّ رعباً من الجنون. فقد يصحو المنفىُّ ذات ليلة، مهما كانت ظروف مغادرته، ليجد نفسه مسافراً فى غرفة غير مألوفة، ولا يعرف أين يمهّد لخطوته أو بأىّ اتجاه يقع الباب الذى دخل منه. وربما تكون صدمة هذا الانفصال (المستهلّ من لحظة ميلادنا) عاقبة عادية للأشياء، لتحرير الذات، لتعلّم الحركة ضمن العالم فى حرية دون أشواق أو مخترعات، مما يستغرق سنيناً من التعلّم الصبور؛ وساعتها نستفيق لنجد السنين تُفرّغ خلفنا وادياً معتماً.

★★★

عن أصولى، لا أعرف الكثير. فقد ربانّى جدّى بضاحية غربية من ميامى فى منزل صغير لا يمتاز بشيء عن منازل الشارع الأخرى. يسير بى كلّ صباح للمدرسة ثم نعود معاً كلّ ظهيرة. وهو يتكلّم، يبيّن لى أسماء الشجر الذى يريد منى معرفته، أو اسم زهرة يراها تنمو بحديقة أحدهم. ويجلس فى الأمسيات بكرسيّه الأصفر العارى ليقرأ ساعاتٍ صامتاً. وحين نمضى للفِراش، يدير جدّى الراديو الذى يضعه فوق الخزانة على الموجة القصيرة. فأروح فى النوم كلّ ليلة وأنا أنصتُ لمحطاتٍ داخل وخارج النغمة، ويَصدُر أحياناً أنينٌ غريبٌ عند نشرة أخبارٍ بهمهمة قليلة بالإسبانية أو ألحان مشروخة تُعزَف من مسافات لا أسبر غورها.

لا يوجد بمنزل جدّى تليفزيون ولا مجلات أو صور، هناك فقط كتب وتقليب صفحات رصين. لا يتحدّث عن والدَىّ، كعادته فى كلّ شىء، كثيراً. نشأتُ على فهم أن أبى كان بالسجنِ ومات هناك، ولحزن أمّى عليه أرسلتنى بعيداً. وعندى ذكريات طفيفة استفسرتُ عنها من جدّى وأنا طفلة. أحسّ بها جزءاً من خيبة أمل كبيرة، فهى إحدى ذكريات الماضى التى يُفضّل ألاّ أتكلّم عنها. كما أن جدّى، عبر سنوات طفولتى، كان يمثّل معظم معارفى عن العالم. وبرغم هذه المآسى الدفينة، فقد وفّق فى منحى طفولةً هادئة بل هانئة؛ وجلّ ما أذكره الآن علاماتُ النضوج العادية: الغوص بحوض بلاستيكيّ مع أولاد الجيران، زيّ مدرستى الكاثوليكية وراحتى أن أكون ضمن مجموعة تتوافق فى أشياء مهمة. ومما أذكره عن جدّى فترة الاضطرابات، أنه منحنى حياة لطيفة عادية؛ وهى الحياة التى يرغب فيها مَن يكفّون عن الصراع ليعطوا للأشياء معنىً.

عموماً، جاء زمان لم يعد فيه صمتُ جدّى عن أمى يرضينى. وأنا فتاةً بدأت أحسّ خلفى فراغاً، وبينما كنتُ أكبر شغل بالى ذلك الفراغ الخالى الذى يُفترَض أن تشغله أمّى. مررتُ بفترة مراهقتي، فصرتُ أقضى وقتاً أطول وأنا أفكّر فيها، وفى كلّ تصوّر تبدو أجمل، أشدّ إثارة، أكثر اختلافاً عن المرأة التى أصبحتُ عليها. كنتُ أشارك جدّى الاحترام البسيط والحبّ، لكن بمسحة إحباط وشكّ. وكلّما أُلحف فى سؤاله ينسحب إلى كتبه هادئاً. وحين سألته مرة لِمَ لا يملكُ صورةً لأمّى ردّ ببساطة إنها لم تعطه صوراً.

وقد نجحت خلافاتنا الدائمة فى توسيع جدار عزلتنا، فأستنتج أنى عموماً لا أستطيع التخلّى عنه. وبعد تسجيلى فى الجامعة كنتُ أعود كلّ سبت للجلوس معه على الغداء. حين يصفو الجوّ ينسحب إلى الشرفة بعد الوجبة ليدخّن سيجاراً. وذات يوم، بدلاً من ترتيب الصحون أولاً كعادتى،

قررتُ الانضمام إليه. فجلستُ جنبه، ثم عزمتُ نفسى على سيجار. اتّسعَت عينا جدّى طفيفاً لوهلة، لكنه ظلّ صامتاً. جلستُ ساكنة أتطلّع فى الفناء. بعد دقائق، أطفأ سيجاره وفعلتُ مثله. غرّد طائر ثم راح. حفّ شىء بالعشب. كانت تمطر منذ الصباح، ويحمل النسيم رائحة رطوبة الأرض لتذكّرنا أننا نخطو على أرض حية.

بدأتُ أخبره عن دروسى. وسألنى عما أقرأ. أنصتَ ثم قال: فى الأدب لا يوجد مثل الروس، ولا حتى شكسبير. أردف جدّي: لقد فهم الروس فقط أن الإنسان لا يستطيع تغيير طبعه. تطلّعتُ فيه، فلم يلتفت إلىّ.

قلتُ: ألا يجب على المرء أن يحاول. حلقى احترق، ومنحتنى حُرقة صوتى انزعاجاً لم أقصده. فارتجف جدّى. واصلتُ: تَقَبّلْنى هكذا. التفَت نحوى قائلاً بنعومة: ليس لك الحقّ أن تغضبى منى. قلتُ: وممّن إذن؟ وأنا أحاول خفض صوتى بدرجة مساوية. فلم يستجب. قلتُ ببطء: لا أفهم كيف أمضيتَ هذه السنين دون سعى للاتصال بها. وتوقفتُ. وإن لأجل خاطرى. فلم يتحرّك، واصلتُ باندفاع لملء فترات السكوت: لا أفهم أنك لا تملك صورة أو رسالة، ولا أىّ مستند. كلّ ما أعرفه أننى تربّيتُ على كذبة؛ وهو ما يبعدنى عن الظنّ أنك لم تخطفنى، أو أنك لستَ جدّى فعلاً. ومع الكلمة الأخيرة، عرفتُ أنى ضغطتُ بما فيه الكفاية، فسكتّ. بعد برهة طالت، قال جدّى: تريدين صوراً ومستندات. أهكذا الحقيقة عندك؟ لم أردّ. وسمعته يتحوّل فى مقعده، ثم هدأنا. وحين التفتُّ إليه، رأيتُ يده ترتجف حيث وضعها تحت خدّه.

ثم قال جدّى: لدينا شجرة ليمون بفناء منزلنا. شجرة صغيرة، زرعناها فى إصيص. ومنحتنا ثمراً طيباً. حين كانت أمّك فتاة صغيرة، اعتادت قطف الليمون وجرشه واحدة بعد أخرى بقضمات قليلة. سكتَ جدّى. كانت جميلة

فندعها تفعل ما تريد. كان الجهد يلوى قسمات وجهها قليلاً، لكن تواصل القضم. تطلّع فىّ جدّى. ارتخَت عيناه، واغتصب ابتسامة عمقّت خطوط وجهه. مال للوراء بمقعده وأطلق آهة. قال: المطر جيد لنبات السرخس. قلتُ بعد دقيقة: ولماذا؟ قلتها بهدوء فكأنه لم يسمع. بعد وهلة ضغط يدَيه بذراعَى الكرسىّ الخشبىّ ورفع نفسه. وخلفى فُتح الباب الزجاجىّ ثم انغلق.

طالَت الظلال وانتشرت. وعيتُ تدريجياً العزف القادم من الموجة القصيرة، وتعرّفت على الصوت الشجىّ للمطربة تونا لا نيجرا*. انتهت الأغنية، فجاءت أخرى ثم أخرى، وكلّها محمولة همساً. لم أتحرك إلا نادراً. منذ سنوات، أحسّ فى نفسى فصاماً غريباً وسعياً بلا هدف. كنتُ أجلس ساعات، لا أفعل شيئاً ولا أحسّ بشىء. أسمع الآن كلّ حفيفٍ رهيفٍ بالعشب، كلّ دبّة نملة عاملة.

جلستُ بالشرفة حتى أوشك الظلام. فُتح الباب خلفى ثانية، فالتفتّ. جدّى يحمل بيده قصاصةً بالية من ورق مُصفرّ.

قال بعد أن قَرّ بكرسيه: ظننتُها هى. لم أرغب فى ابتعادك عنها. لكنها أصرّت. قالت إنها تريدك بعيداً عن البلاد. أوقد جدّى بيننا شمعة صغيرة. أخذ القصاصة مضطجعاً للوراء، فتجسّد خلفه ظلّ ضخم. حاولتُ الاتصال بها منذ سنين. وكلّما هلّ شهر مايو، عيد ميلادها، أكتب إليها رسالة. وإن لم يكن عندى رسائل أريها لك الآن فلأنها لم ترُدّ أبداً. واصل جدّى بعد برهة: من سنين سألتُ صديقاً سافر إلى هافانا أن يأخذ إليها طَرداً. والتفَتَ نحوى جدّي. بعضٌ مما رسمته، آه، وصورة مدرسية لك. لكن حين وصل هناك، وجد خمس عائلات مختلفة تشغل المنزل. وقد تلاشت "تريزا".

---

*Tona la Negra: مطربة مكسيكية (١٩١٢ - ١٩٨٢) ، من أصول إفريقية ، توفيت بنوية قلبية (م).

جلستُ وجدّى. فى الصمت، أزيز صَرّار الليل، ثم صوتُ نسيمٍ يتمايل كالنيران. واصل: ربما تُرتّب لأشياء. بعد ستة أشهر، ستلحق بنا. تأوّه جدّى وهو يفرد بإصبعه حواف الورق فى يده. على لهب الشمعة بدا أكبر من قبل، ضخّمت الظلالُ أصابعه العظمية، فركّزَت نسيجَ جلده الهشّ فوق مفاصله. ثم واصل: حين تأهّلتُ لمغادرة البلاد، أخذَت الحكومة بيتى. وكان عليّ انتظار تأشيرتنا. لم يبق عندى خيار إلا الانتقال معها، للمنزل الذى وهبتها إياه. وليلاً، سمعتك تبكين. بكيتِ طيلة الليل دون توقّف. لا أعرف إن تركتكِ حيث كنتِ، أم كنتِ تبكين بين ذراعيها؛ فلم أبرح غرفتى. قال: كان ذلك فى ديسمبر. يوم أوشكنا على الرحيل أحضرتكِ عندي، ملفوفة بالمحارم. وضعَتكِ بالفراش ولم تنبسى، مطويّةً كفراشة صغيرة، تتطلّع عيناك الكبيرتان عبر الغرفة، وترتاحين أحياناً لشىء؛ كمن يقوم تقريباً بعملية جرد. أعطتنى حقيبةَ أغراضك: ملابس، زجاجات، والدبّ البنيّ الذى ضيّعتِه بعد عام بأحد المعارض. تذكُرين كم بكيتِ؟ وأخبرتكِ ألاّ تهتمى، فسأشترى لكِ دباً آخر. لكن هل تتخيلين الآن إحساسى حينذاك.

فتح جدّى الورقة فى يده. لقد رميتُ بطاطينكِ على الطريق. لكن ليس قبل وصولنا ميامي، فلم ألحظ أن أمكِ شبكَت ورقةً بسُترتكِ. رميتُها فوراً، دون أن أقرأها. لكنى استخرجتُها ليلاً من القمامة. لم يكن فى نيتى أن أريكِ إياها. فما نفعُ الاحتفاظ بهذه الأشياء؟ فردَ جدّى الورقة على حِجره ثم سلّمها لى باليد المرتجفة نفسها التى لاحظتُها من قبل.

أمسكتُ الورقة بيدىّ لحظةً طالت. ملتُ أخيراً لقراءتها على نور الشمعة الأصفر:

وداعاً، مع أنكِ

ستظلّين معى، تتسرّبين

نقطةَ دمٍ فى شراييني

قرأتُ الأسطرَ مرات. ثم طويتُ الورقة وجلستُ أتطلّع فى الفناء المعتم، حتى نهض جدّى قائلاً: رطوبة الليلة ستؤذينا.

★★★

بعد أشهر، أوقفتُ الدراسة بالكلية وبدأتُ السفر. وذات يوم عاصف من ديسمبر كنتُ على شاطئ خليج سبستيان. رحتُ إلى خان صغير فكنتُ نزيلته الوحيدة. أول صباح، أخذتُ مجلة للشاطئ فجلستُ هناك طيلة النهار، تلفّنى بطانية، وأنصتُ إلى الأمواج. بعد الغروب، حام سرب نوارس عبر السماء العميقة كمئة نجم، فجلستُ أراقبه حتى هبوط الليل.

تمرّ شهور ثم سنوات وأسافر إلى أماكن أبعد وأوسع، أودّ مواصلة التحرك، وقد تغلبتُ على فزعى القليل من الطائرات وخوفى من الرحيل. كنتُ فى الهند حين علمتُ بموت جدّى. أخذَت منى العودة إلى ميامى ثلاثة أيام، ففوّتت عليّ الجنازة. مكثتُ مع الصحاب أياماً قبل العودة إلى منزل جدّى لفرز أشيائه. عجزتُ أول ليلة وحدى بالمنزل عن مقاومة إحساسى أنه قد يظهر فى أىّ لحظة بالزاوية ملوّحاً كعادته بطريقته الخجولة. المنزل ملىء بصمت جديد يلفّ أىّ محاولة للحداد. لم أستطع النوم، فسهرتُ طيلة الليل بكرسيه أقرأ فى أحد كتبه عن زراعة ورعاية السرخس.

بعد وقت قصير، قمتُ بأولى رحلاتى إلى كوبا. وحين هبطتُ رأيت العاصمة أخيراً مع ضوء الغروب الأحمر، عرفتُ أنى عدتُ لأفتّش عن أمّى. أخذتُ غرفة بفندق هافانا ليبر وقَضَّيتُ أياماً أسير فى حيّ جدّى: أطرق الأبواب، ألوّح للنساء بشرفاتهن، أصرّح لأىّ امرئ ينصتُ لى باسم أمّى والأسطر الثلاثة التى تُعتبر علاقتى الوحيدة بالمكان الذى جئتُ منه. قمتُ برحلاتٍ أكثر، كلّ منها فاشلة كسابقتها. مع أنى قابلتُ الكثيرين ومَرّرتُ

عنواني لكلّ من ظننتُ أنه يعرف شيئاً عن أبي، إلا أنى انتظرتُ دون جدوى. ثم كَفَفتُ أخيراً عن السفر إلى هافانا، فقد خلّفتنى هذه الرحلات أشدّ إجهاداً، لا من عدم اليقين بل من الأسى الذى أبلغهُ بوضوح بعد كلّ زيارة. هافانا بديعة من أول لمحة، لكنها مدينة الآمال المحطّمة، وكلّ مكان أسير فيه يذكّرنى أن الحياة بأكملها تميل إلى الفساد والدمار.

★★★

استقررتُ فى بلدة على شاطئ صغير شمال ميامي، أعول نفسى بكتابة مقالات قصيرة عما زرتُه من أماكن. وجدتُ أنى أستطيع الكتابة عن أىّ مدينة دون أن أكلّم فيها أحداً. وظننتُ أنها أكثر الطرق أمانةً للعمل، فهى تلتقط نقاء المكان من دون تعقيدات، فالبشر يميلون إلى التطفّل.

كنتُ أسافر وحدى وأعود وحدى، وبعد فترة تبينتُ أن قلقى الذى كان يغمرنى قد شَحُب مع الزمن. وصلتُ منزلى وقتَ ظهرٍ بعد أسابيعَ من الغياب، فوجدتُ طرداً ينتظرنى. لم أفضّه إلا بعد يوم، فلم ألحظ أنه مشحونٌ من عنوان قديم فى شاطئ ميامى حيث عشتُ فترةً أثناء رحلاتى إلى كوبا.

كان الطرد مرسلاً من إسبانيا دون عنوان يُرَدّ عليه، مضموماً بعناية، ومن الواضح أن هناك مَن اتّخذ رعاية كبيرة لضمان محتوياته. صندوق مسطّح مستطيل ملفوف بلاصق سميك. مع ذلك، نَعمَت حوافه ودكنَت من الملمس. قلّبت فيه مرات لأعثر على أول اللاصق. وظننتُ أنى وجدته بالظهر، لكن حين غرستُ ظُفرىَ تحته وجدتُ مجرد جعدة فى اللفّ. بعد وقت من تدوير الصندوق، جلبتُ سكيناً وفَتّتُ اللاصق بسرعة. نزعته فتقَشّر نظيفاً، كأنه من قطعة واحدة. تحت اللاصق خيوط رفيعة تلفّ الصندوق وتتلم حوافه. حاولتُ نزعه، لكن كان عليّ أن أقصّه فى النهاية. مسكتُ الصندوق عارياً بين يَدىّ، بسطحه المجعّد حيث نزعتُ اللاصق. لم يكن ثقيلاً بالقياس

لحجمه. فهزَزْتُه. لم يصدُر عنه صوت أو تحرك شيء. رحتُ أفتحه، لكن أصابعي ارتجفَت عليه. فتوقّفتُ وأغلقتُ عينيّ، وبعدما استعدتُ سَكِينتي قَشّرت أحد الجانبين بأظافر أصابعي حتى انفكّ اللاصق.

★★★

اندلقَت أوراق وصور لها رائحة أدراج معتمة وغرف مغبّرة. تفكّك بعضها بمجرد اللّمس. وكانت بعض الرسائل مكتوبة بيد صغيرة كأن كاتبها يهجس أسراراً فى أُذن. أملّتُ بداية أن أرتّب الأوراق والتذكارات على أيّ هيئة من النظام أحسّها. لكن مع كلّ إعادة قراءة كنتُ أجد نفسى تنسحب إلى شيء أعمق، حتى خشيتُ أن أضيع بين الصفحات، أغرق فى نقطة من دمى.

في عشق جيفارا

جهودى الأولى باءت بالفشل،
فلم تخلف لى غير بقع من الذكريات،
التى سطّرتها رايات من الريح.

ذات يوم، حين كبرتُ مع الثورة، جاءت امرأة إلى بابى تطلب منى رؤية سيدة المنزل. كان الشهر يونيو وصيفى السادس عشر فى هافانا. الستائر مسدلة من الحرّ لكن النوافذ مفتّحة خلفها، وسمعتُ بياتريس تخبر المرأة أن لا أحد بالمنزل. لم ترحل بل نادت بصوت نسويّ شاب: أريد فقط زيارة سريعة. وكأنها عرفت أنى أنصتُ خلف الستائر، أخذت تتلو بصوت عميق وجادّ:

وداعاً، مع أنكِ ستظلين معى...

أحسستُ السنين ثقيلة على صدرى فأنهيتُ الأسطر بسرعة مع نفسى:

وجدتكِ بعد العاصفة،

وكان المطر يُحمّم الهواء،

وفى الماء،

تلمع قدمكِ البديعةُ كالسمكة.

جلستُ فى حرّ الظهيرة أرقب اضمحلالَ وقعِ قدمَيها. سمعتُ بياتريس تصعد السلم وسمعتها تقف ورائى ثم تتحرك.

فى ما بعد الغروب، عادت المرأة. كانت بياتريس بالمطبخ تخرُط الطماطم لوجبة المساء. انتظرتُ دقائق أنصتُ لأصوات الشارع، ثم سرتُ نحو الشرفة. أدارَت المرأة وجهها إلى أعلى فرأيتُ على نور اللمبات الصفراء شعرها الداكن منسدلاً قليلاً ونهاياته معقوصة حول رقبتها بشكل مألوف عندى. شابة نحيلة وأستطيع القول (دون أسى أو تواضع زائف، فقد مضى زمن تخلّيتُ فيه عن هذه العادات) إنها تذكّرنى بنفسى فى العمر ذاته. لكنتها الإسبانية ممطوطة وصوتياتها منفوخة بحسّ من كوبا، لكنها تلبس بنطلوناً أسود رفيعاً وحذاء مدبّباً، فعلمتُ أنها ليست من هنا. أخبرتنى اسمها وقالت إنها تبحث عن امرأة تخلّت عن طفلتها منذ سنين. أخبرتها

أنها أخطأت المنزل؛ فلا أحد هنا. فسألت إن كان يمكنها الصعود والكلام. قلتُ: آسفة، لقد ضللت الطريق. وقفت فى الشارع ترفع ناظريها نحوى فترة طويلة. تخيلتُ أنها تحاول تبيّن وجهى بالعتمة، لتتعرّف فيه على السنين. ثم اعتذرت فجأة، وفتحت يديها أمامها. لوّحت، وهى لا تزال تنظر إلىّ، ثم مضت ناحيةَ البحر. راقبتُها حتى لم أعد ألمح قوامها وقت الغسق.

هبّت ريح قديمة فى تلك الليلة، خلّعت النوافذ من قوائمها. وكنتُ أشمّ المطر القادم. أضاءت بياتريس شمعة صفراء بالصالة، ورقدتُ بالفراش أرى الظلال تتذبذب وراء الباب.

تذكّرتُ ليلة أخرى هبّت فيها الريح مع الأشباح. كان راقداً جنبى بالعتمة، ينصتُ. قال: الذكرى طريقة لإحياء الماضى - والموتى.

★★★

حين تعيش زماناً طويلاً بمكان واحد تشرع حياتك فى الارتباك مع المدينة؛ فتغدو دروبها وعلامات شوارعها إشارات على ذكرياتك وتصبح سائحاً فى ماضيك، ترى ذاتك أصغر مع فتنة امرئ مرّ عبرها. منذ كثير، مضى الماضى ناعماً بالبعاد، فحين يتكلّمون عن بناية بديعة أو درب تفجّرت فيه أزهار مارس الصفراء، يقصدون نواتاً تمنّوا أن يكونوها. وأخشى إن حكيتُ الحكاية الآن بعد سنين من الصمت، أن أرتبك أمام أحد السياح الحالمين فى مجد وحيوية، بسعادة التعامل مع سطح الأشياء.

★★★

وأنا صغيرة، كنت أتوحّد مع الطقس. حين نذهب إلى المزرعة فى نهاية الأسبوع، والليالى سود بلا قمر حتى لا تَبينُ أصابعك من العتمة، أرقد يقظانة، حيث يقصف درباً أو آخر صوتُ الريح. وحين تهجم عاصفةٌ أحسّ بها قبل أميال، أتشمّمها؛ وأوقظ العائلة غالباً، أبى وأمى وأولاد عمومتى

كلّهم، بعويلي. حدث هذا حين بدأتُ أستفسر أن العالم الخارجي لم يعد حقيقياً أكثر من خيالنا وأن تقلّباته ليست إلا مرآة لأفكارنا. وأتساءل الآن إن كان تاريخنا المسجّل لم يعد يشبه هذا، ففكرتنا عن التاريخ لم تعد إلا طريقة لقول فكرة عن أنفسنا. تهلّ الطفولة أولاً، وتمضي براءة الأزمان، ثم صدمة الانتباه للّذة والألم، ومن ثم الخروج والثورة: فتتخفّى أفكارنا ورغباتنا ضمن حكاية الإنسان الكبرى. وراءنا تقع بداياتنا، وأمامنا السلوان. وأن تكبر يعني أن تنظر وراءك، بخوف أحياناً وفرح أحياناً أخرى. أما الشبان فهم الثوار، المكافحون لأجل المستقبل، قانعين بأنه هناك عند حدّ السماء (هناك؛ هناك!) تقع الأيام السعيدة. لكن كلاً من الكبار والشبان يطلقون العنان لأشواقهم. وكلّما نكبر يبدو الولع بالماضي هو المجرى الصحيح. فلماذا نجعل المستقبل مثالياً، بينما ينتظرنا الموت؟ كم سنكون أجمل لو فكّرنا في الماضي ونحن شبان دون تجربة، تقع بداياتُنا وراءنا كحلمٍ منسيّ.

★★★

وأنا فتاة، كانت هافانا تبدو مليئة بالنساء الجميلات. فساتينهن بواجهات المحلات البراقة، حيث تلبس الحائكات قفّازات بيضاء فلا يتّسخ القماش القادم من أوروبا. أما الصالونات فمليئة بالنساء المنشغلات بأنفسهن: يطلين كعوبهن بكريم كثيف، عاقصات شعورهن لتوكيد عيونهن المنحرفة الخلّابة وخدودهن الريّانة. نساء يأكلن أحلامهن مورّدات كأزهار تحت المطر.

عرفَت أختاي أيضاً كيف تريحان رأسَيهما على أيديهن فيشكّل خطّ رقبتيهما الطويل رمزاً للشوق. ولهما طريقة في نفض شعرهما الذهبيّ عن كتفيهما ببطء، كأنهما حين تفعلان تكشفان طريقة لتمديد النهار. يأتي الرجال للتطريب معهما بعد العشاء، فتجلسان بالشرفة لاستنشاق نسيم المساء، وضحكهما البناتيّ متّخذاً لون الغروب.

كان شعرى كثيفاً داكناً وأجعله قصيراً على رقبتى. ومساءً حين يجلس الآخرون فى الشرفة، أصعد أعلى فأرقب الشمس وهى تغرب على قمم السطوح، وأخلّى شعرى ليجفّفه النسيم، أرقب الأفق حيث تأتى السماء كل ليلة فيلتهمها البحر .

كنتُ أصغر وأكثر سُمرةً من أختىّ ، بمؤخرة عجفاء صبيانية. فلا يطربنى الرجال بالأغانى ليلاً عند نافذتى. ووقت الظهيرة، ينسى طالبوا اليد القادمون لأختَىّ عند الباب اسمى. لكنى رأيت كم ينحنى الرجال مبتعدين عن زوجاتهم عند المطعم الصغير قرب الكاتدرائية، كم تُعتم أعينهم وهم يصادفون عينَىّ فتاة صغيرة، لكنى أعرف أن الصمت يمسك ميزان الحقيقة الأثقل.

★★★

تركتنى أمى أهيم بالشوارع؛ تخلّت عنى من زمن طويل قبل أن أعرف. فى الصباح الموسمىّ الصافى، قبلما ينهض أحد، أخرج من الباب الخلفىّ وأمضى فى حوارى الكلاب النائمة. الحىّ مختلف. مطر وحرّ، وماء مالح تتنوّقه فى هافانا كلها، يخترق الخشب والمعدن. فتصدأ السيارات، وتنضب النوافير. كان يزيل كلّ شيء فيجعل أوجه المنازل المطلّة على الشارع الجانبىّ ملساء نظيفة. وكلّ عام، بمعطف دهان جديد، ستائر أخرى وراء النوافذ، قبضات مشؤومة بالشوارع واهنة منقوعة. وكانت الحوارى هى مؤخّرات الكدح المعتمة. يتقشّر الدهان من العزلة والعفن المسودّ بأماكن فارغة. يتشقّق الإسمنت، تينع أزهار أرجوانية صغيرة، كأن فى كل منزل بستانياً بين جدرانه. أجرى بالحواري، مندفعة مع تلك الفوضى النشطة مثلي، بارقة غريبة بديعة فى النور المنحدر على البنايات.

★★★

أسير بالجزء القديم من البلدة بعد عاصفة، حصى الأرصفة صقيل لامع. بدأتُ أحبّ الشوارع الضيقة والأماكن العتمة. فالمدينة حبّى الأول. أُسرّ بكلّ

ما هو بسيط: كورنيش ملتوٍ يصطاد الشمس بزاوية، لوحة إعلانات تلمع صفراء أعلى النوافذ فوق بيت أحدهم.

يهطل المطر فى حُفر الحجارة ومنزلقات الإطارات محدثاً صدىً بالحوارى. ويتسرّب الضحك من الغرف الصغيرة كدواء لذيذ.

أقف فى ركن لأدع سيارة تمرّ، شيفروليه سوداء يزينها انعكاس لمبات الشارع. النور فوقى من غرفة؛ وتنسحب فضة الستارة المخرّمة حين تُفتح. تقف السيارة ويبدو صوت الرجال واهناً غاضباً. أقف ضاغطة نفسى إلى الجدران القديمة الرطبة. يفتح السائق بابه فيشدّ رجلاً للخارج من الخلف. وجهه منقلب فأتصوّر حجاباً يغطّى وجهه فى الظلام. يقف فى الأنوار الأمامية. يخرج آخرُ من السيارة. ملابسه بيضاء بهذه الحارة الموحلة، حذاؤه أبيض وقبعته قشّ باهتة تُجمِّعُ ماءً بحافتها، وتسقط على وجهه قطرات صغيرة كالستار. يمضى الرجل إلى الآخر المحجَّب فينحنى فوقه وهو يتكلّم بهدوء. يمضى عائداً للسيارة. ضحك من الغرف الصغيرة. ثم انطلاق مسدّس. تروح حياة الرجل أمامى كأنى مَن ماتَ: أتذكّر فطور الصباح وأنا أتطلّع فى الشارع، أضع زبداً على الخبز، وببطء تغلى القهوة، أرقب السكر وهو ينوب. أتذكّر غرامياته وكأنها غرامياتى، وأميل ناحيةَ الحجارةِ حتى أصرخَ على كلّ ما لم أستطع قضاءه من أشياء.

تحفر الإطارات على الدرب، ويندفع المطر ثانية فوق حصى الأرصفة.

★★★

عكس ما تتمنّاه أمي، كنت أمضى إلىَ الفندق لسماع الخلاسيّ العجوز وهو يعزف "ليكونا*" فأبكى دائماً. أرمى شعرى للوراء، قصيراً على رأسى،

---

* Lecuona موسيقار كوبى (١٨٩٥ - ١٩٦٣) مشهور عالمياً ، ألف أكثر من ٦٠٠ مقطوعة ، تمثل روح كوبا وعصبها الثقافى (م) .

وأعقص أطرافه حول رقبتي. أضع أحمر شفاه ويميل العازف الخلاسيّ العجوز برأسه حين أريح ذراعي على البيانو.

كل جمعة أمنحه بيزيتا، وبعدما يمضي الناس يقبّل يدي في العتمة.

★★★

يجري شارع برادو بزاوية معينة إلى البحر، كسفينة على متنها أزهار. ترقد المقاعد في حمّام الشمس تحت لمباتٍ حديدٍ سود. كنتُ تقريباً بالخامسة عشرة، كبيرة على الدُمى والحلوى، لكني آكل على المقعد الشوكولاته التي اشتريتها من سنيور خوان، أدعها تنوب بلساني، فأتمنّى أن تدوم أطول. أفكّر في الأطفال الآخرين المحبوسين داخل فصولهم الدراسية، في أختَيّ بشعرهما الذهبيّ، في فتيات ميدا، في الفتيان الآتين مساءً للنداء. وبما حولي من ظهيرة ذائبة، هناك بقعة من سماء تخصُّني بين السحب.

إنه الشتاء، تلبس النساء البنيّ والبحريّ، في تحدّ للنباتات المزهرة الخضراء، سماء زرقاء تؤذي العيون. الشتاء دافئٌ براق، تلبس النساء قبعات وهن يسرن في برادو مستندات إلى أذرع رجالهن. حوارات مقطّعة، حفيف أنسجة، ضحكات نساء. يُملن رؤوسهن فتغطّي القبعات أعينهن، تظلّل صفوفاً بيضاء من أسنان سعيدة.

يقف أمامي رجل نحيل طويل بقبعة حمراء، يسألني لماذا أتغيّب عن المدرسة، شاب بديع مثلي بملابس نظيفة ينتظره بالمنزل أمّ وأب. آكل الشكولاته في بطء. أخبره أني يتيمة. تأخّر الوقت على العودة. وأبتسم، فلا مخاوف عندي. يحدّق الرجل، إحدى عينيه مرتخية. نحيل، لكن شعره منسدل كثيفاً لامعاً تحت قبعته. وهو يدور ليمضي، وقفتُ أتتبّعه. نظر وراءه مرة ثم اندفع إلى أول شارع برادو كأني أطارده. تومئ إليه النسوة وهي

تقهقه. يحنى بعض الرجال قبعاتهم. يقف النحيل على مقعد ويصفّق. فيتجمّع حشد صغير. يصيحون: لوكو، احكِ لنا حكاية. يخلع قبعته الحمراء بحرفها المزيّن. ينحنى كثيراً حتى يتظاهر أنه سيقع من على المقعد. تضحك النساء ويلقى إليه الرجال بقطع العملة. يضع الرجل قبعته ثانية على رأسه. يضعها منحرفة فأضحك وأشير. يبدو جاداً، فيدلّ بإصبعه على شفتَيه قبل أن يتكلم: من زمان (يهمس) كانت الجزيرة فارغة ولا صوت للريح، والسمك يسير بالرمال تاركاً آثار أقدام تدوم سنين.

يميل الرجل حتى ركبتيه، مدّعياً أنه على أطراف أصابعه كالسمك.

ثم رأى الربّ أن هذه الجوهرة الخضراء (يقول الرجل) جزيرةٌ كاملة، فرفع جيشاً كبيراً من الملائكة وأعلن نفسه وزيراً على الأبدية.

تخبط امرأة لباسُها أسودُ يدَيها على صدرها. تقول: يا لها من محاكاة لطيفة! يومئ رجل جنبها. يقول: المجانين كأيّ شخص آخر.

★★★

حين توفّيت أمي، وضعنا جثمانها في المدخل الأماميّ وعلّقت أختاي أزهاراً حمراء، لا أزال أحسّ الخزى من عطرها. حفظنا كلّ شيء كما هو: كرسيّ خشب الورد الهزاز بقاعدته القشّ الرطبة، طاولة محفورة اشتراها لها والداها من إسبانيا. نروى النباتات كما كانت تفعل، في الوقت نفسه من النهار. وحين تنوى، نحفظها بأُصصها حتى يتشقّق التراب وتغرق وسط الجذور.

★★★

هلّت أصوات من تحت وعرفتُ أنها آتية لى، راهباتٌ بقبعاتٍ سود تحت شمس الاستواء. كانت أمّى تستقبلهن بملابس نومها، وحين يتوقّفن أتصوّرهن يمعنّ فى وجهها الناعم، وغضون النوم تحت عينيها.

قلن: فتاة بمثل عمرها.

وقفتُ على السلّم، خارج غرفة نومى. هَلّ صوت أمّى زاحفاً. بدت غريبة، دون وجهها المتراخى الذى يحجز الصوت. نادتنى أمّى بعد رحيل الراهبات. فجلستُ عند قدمَيها. ظلّت صامتة وهى تضفُر لى شَعرى. أمّى حية، تمازح أختَىّ تقريباً. لكننا نادراً ما نتكلّم وأنا معها وحدنا. أستدير أحياناً فأراها تتأملنى وهى تومئ.

ضفّرَت أمى شَعرى ثم جلسَت، جفناى مغلقان من حرّ الظهيرة، صوت السيارات كهدهدة أطفال. بعد وهلة وقفتُ فاستدرتُ كى أنظر.

قالت: عليكِ بالذهاب الآن للمدرسة.

حاولتُ هزّ رأسي، فأعادَت يدَيها إلى ضفائرى ومسكتها بحزم.

صحتُ: توجعينني.

فكّت الضفائر بسرعة وهى تشدّها، أصابعها جامدة باردة على فروة رأسى. تديرنى بخشونة.

أنت فتاة وتظنين أن العالم هو الصغير. لكن هناك الكثير مما لا تفهمينه، سيدتى الصغيرة. صباح الغد واليوم الذى بعده وما بعده، ستذهبين إلى المدرسة. ولا يهمنى ما ستفعلين من بعد، لا يهمنى ما فعلتهِ من قبلُ، المهم أن تراك الراهبات فى الفصل. عَضَضتُ شفتَىّ لأمنع نفسى من الصراخ ثم عَضَضتُها لأمنعها من الكلام. انحنَت أمّى لتقبيل جبهتى، ثم غادرت الغرفة.

★★★

بعد زواجى تركتُ منزل أمّى إلى منزل أبى وأختىّ. لكننى أزورهما كلّ أحد. يستقبلوننى بالشرفة، حيث كنّ منذ سنين ينتظرن طالبى الأيدى. نشرب القهوة، ونتكلّم عن أحداث التلال.

آخر مرة جلستُ فيها بالشرفة مع أختَيّ، كانت السنون تعدو أمامنا. وفى غضون أسابيعَ، تذهب أختى الكبرى لإسبانيا مع زوجها من منطقة الغال. لكن الظهيرة الأخيرة كالأخريات. شربنا وضُحكنا. واحدة من أوقات الظهيرة الباردة فى هافانا، هواء بحريّ عليل شَذِيّ. وحين تأخّر الوقت، جلسَت أختى إلى البيانو وهى تعزف باخ كما تفعل دائماً، فانسابت الألحان فى الشوارع دون سياق، كأوراق شجر بالريح.

★★★

ذات صباح، كنت أسير فى الحارة. عائدة من المدرسة، مدرسة الراهبات حيث المرايا ممنوعة وتستحمّ الأخوات ملفوفات بملاءات بيضاء تخفيهن عن أنفسهن.

الجوّ حارّ من جديد، حرّ أصفر مخضرّ كالسائل. تنتصب البنايات إزاء السماء ملطّخة بالحرّ. من فوق، صوت الأوانى والملاعق المعدنية، وصياح أولاد. أسير فى ظلّ الزوايا الهزيل. الريح ساكنة، تصدّها المنازل الصلبة التى تمتصّ آخر العصف بغرفها الداكنة، وتتنفّس البحر بزواياها المغبّرة. ما يصل إلى الحارة هو الزفير، نُثار من حرّ النهار، ورقّ معطوب وحبيبات قهوة وثمار جلدها أسود طريّ.

تميل امرأة من نافذة، فترانى أنثنى عائدة للظلال. بعد لحظة، تعود بسطل. يندلق علىّ الماء الوسخ، مرشوشاً فى برك سوداء. وتتسلّ قطرات على جانب البناية. وتصفُق المرأة النافذة بعنف. حين أقترب، أرى النافذة لا تزال تهتزّ. النهار بارق. أسير. يغلى داخلى مرض أصفر. أودّ لو أنزع بلوزتى فقد لصقت بظهري، وتركَت الهواء يلحس جلدى العارى كمن ينظّفه. منقوعة تحت جونلتى؛ والعرَق يسيل تحت ساقيّ. تعتم السماء عند حوافها. وقد تمطر. أدور إلى شارع ضيق، فأعبر نحو الحارة التالية. مطر، نعم،

ورعد. أستطيع تشمّمه. أمامي، وراء باب مفتوح، حركة. فأقف. كلب يعوى. صوت راديو. ثم هدوء. وفوق الهدوء، أنين واهن. يقفان عند منزل، مضغوطَين على الحائط المواجه لى. فتحا الباب فغابا وسط الظلال. تنسلّ يد الرجل داخل بلوزة المرأة. تتقلّب اليد كدقّات قلب وحشيّ تحت بلوزتها. ثم تنبع يده جوعانة نحو رقبتها وأسفل، أسفل ظهرها، أسفل خصرها، وهى تضغط. يسحب أمامه جونلتها الزهرية، يصل مكانها السفليّ. ينهار كتفا المرأة، فيميل رأسها للوراء كاشفاً نحرها الأبيض الناهض. ويعتم العرَقُ قميصَ الرجل. يدير وجهه خفيفاً فتصادف عينَيّ عيناه، أسودُ عينَين تحت حاجبَين كثيفَين. يرقبنى وأرقبه. ثم تطرف عينه ببطء، مرة ومرتين. تُغمِضُ عيناهُ وقلبى خافق، عرَقٌ كنجوم باردة على جلدي. تبدو أصوات أخرى. ضحكة أطفال. صفعة باب. أستدير فيمضيان وينغلق الباب، كأنهما الآن وتدٌ ظلّ تحت بَهرة شمس، وينسابُ ماءٌ لامع على آثار أقدام بالوَسَخ.

هكذا أبدأ الحياة.

★★★

يرتاح الآن إدى شيبا، إدى التعس، تحت علامة نحس، هو أول رجل أحببته.

عند الثامنة كلّ أحد، أفتح الراديو المصنّع من خشب الماهوجنى بغرفتى لأنصت إلى صوته. أرفع الصوت فى بعض الليالى حتى ترتجف السمّاعتان، وتدقّ أختاى على الجدران لتهدئة روَع إدى. لكنى أريد لصوته أن يدوم أطول من دقائق الأحد المختلطة بأصوات العشاء؛ أريد مواصلة سماعه للأبد. صوته جوعان؛ قادم من تحت مياه عميقة. صياح نورس، صوت عَدّائين على طرق سريعة وألسنهم معقودة، صوت إنسان يغرق.

لا أرغب فى رؤية شكل إدى. أرغب أن أعرفه فقط وهو يقول: عفاف، عفاف، عفاف.

فى ١٥ أغسطس ١٩٥١، أصعد السلّم المفضى إلى غرفتي. أفتح رقائق ستارها الخشبىّ الثقيل، على أمل تنسّم الهواء، لكن الليل هامد حارّ. تومض سماء كهربية من بعيد. يصطاد الهواء فى هذه الليلة صوت إدى. يحتكّ كرسيّ بأرضية عارية. يودّ إدى للمرء أن يضحّى، ينصف؛ ألا يحبّ كما يحبّ دون لوعة. جزيرة إدى للحبّ، تخيب أمله للأبد. وهو العاشق المتيّم، يتخلّى عن الغنى والعقل سبيلا للعفاف.

هذا ندائى الأخير، يقوله عبر أسطح المدينة المعتمة، فى الحوارى الموحشة، بين النوافذ المفتوحة، ويطوّق صوته حوافّ الليلة الحارة فيأوى وسط النجوم.

لم يدرك أحدٌ أنه أطلق النار على نفسه: كان يمثّل إعلاناً وهو يضع مسدّساً فى معدته. إدى التعس، إدى المجنون، إدى الصائم أياماً، إدى المُمسِك رأسه تحت ماء. إدى، حبى الأول.

★★★

بعد عام، بطلقة قوية فى الظلام، أنهَت الشرطة وهم أن المستقبل سيدوم للأبد. دُفن جسمه ١٩٤٠ دون راية استرحام. راقبتُ أعظم رجالنا وهم يخدشون لحمَهم، وكنتُ أفكّر فى إدي، الذى جاء موته كمجاعة كبيرة.

هذه هى الجزيرة التى منحنا إياها مارتى *: شفة خضراء تويّخنا بفتنتها، تنادينا لنعود إلى حوافها السود. الانتحار إيديولوجيتنا المنظّمة؛ رغبة قلبنا الوحيدة الموحلة.

★★★

تزوجتُ كالستو ديلندر ٢٨ مايو ١٩٥٣، حين وقعتُ بدايةً فى حبّ صوته - باكياً (مستر بينات فيندر!) وأنا أعبر الحديقة فى طريقى إلى درس الفن.

---

* Jose Marti: شاعر وزعيم قومى كوبى (١٨٥٣ - ١٨٩٥) ، صحفى ومنظر ثورى ، رمز لاستقلال كوبا عن إسبانيا فى القرن ١٩ . م .

صوت حزين، كما فكرتُ، مطعّم بالذهب. ولأنى اخترته بين أصوات المدينة حَصراً، بدا غامضاً حقاً فلم أعرف مَن يحمله. وهى الطريقة التى أعلم بها دائماً كيف يهلّ الحبّ، مثل دفقة لون بالحلْق.

كالستو، كما نما إلى علمى، أستاذ الإسبانية، يتحدث بأسلوب رجل حذر ممتنّ لمهنة حياته. وحين يعترض على هذا الوضع السياسيّ أو ذاك، لا يُقنع فحسب بل لا ينفّر أيضاً، من طريقة لفظه لمّا يتكلّم. عبر السنين، كنتُ أظنّ دفاعه الصارم بالشواهد اللّغوية نوعاً من تَحَجّر العقيدة، لكنى وجدتُ أفكاره نظيفة غير متلوّنة، وفى خدمة الحقيقة ذاتها التى أسعى لاكتشافها عبر لوحاتى.

كان زوجى الجديد يشغل نفسه بكتابات فى صحف تعليمية بإسبانيا. كتابات لم أتوصل إلى فهمها، تركّز على فكرة اللغة كعِلمٍ دقيق يمكن تحليله وإعادة بنائه بطريقة تطمح للعلاج نابعة من إرادة معملية. أمل مبدئىّ يمكن نسبته إلى يونج *، أن اللغة فكرة تطورت مع نواتنا الأعمق ولا تزال تحمل فى دفائنها أقدم أمانينا ومخاوفنا؛ وربما سرّ خلاصنا. ماذا يقترح كالستو؟ لا أحد يعرف. كتاباته غامضة فلا يستطيع امرؤ أن يغامر بالتصريح بها عالياً. وقد شككتُ أحياناً أنه كان يرمى إلى أن تدمير اللغة بالكامل هو شكل من التقدّم. وتساءلتُ أحياناً أخرى إن كان بمقدوره تدمير كلّ شىء للحفاظ على النقاء الذى ترسّب ذات يوم فى العبارة بينما يقع الآن تحت طائلة هجوم الإنسان المعاصر، بثرثرة أجهزة الراديو والصحف

---

* Jung : عالم نفسى سويسرى (١٨٧٥ – ١٩٦١) ، تلميذ فرويد ، مؤسس علم النفس التحليلى . م .

نصف الأميّة. كتب بفقرة تقليدية: قد نتأمل لماذا كانت اللّغات الرومانسية ثرية جداً بمقاطعها وألوانها، ممزوجة بأزهار وتحولات، فلا نستطيع قول ما هو واضح حتى حين نظنّه هكذا، وتخيب مساعينا كلها في اشتباكها بالزخرف.

★★★

كالستو أكبر مني بكثير، إلا أننا نتشارك في عدّة أشياء، ضمنها التنشئة اللطيفة الملائمة لعواطف تلك الأزمنة، والقلق المتزايد عليها. فقد كان شديد النفور من والديه. ومنذ وفاة أمّي، لم نتكلّم أنا وأبي إلا نادراً. ثم اتّسع ما بيننا من فجوة مع السنين، حتى بدا أننا لن نسمع شيئاً عبر الجحيم دون أن يصرخ أحدنا في الآخر.

لم يحضر أبي زفافي، فقد كان مسافراً في إسبانيا. لكن حين عاد، ظلّ يأتي أسبوعياً لتناول القهوة، وبعد عام قدّم لنا منزل شارع فيدادو بمثابة هدية. قد لا يكون نوعاً من الندم لكنه، كما ظنّ كالستو، حاول أن يدينني بفضله. أما أنا، وعكس تمنيات زوجي، فقد تقبلتُ المنزل، مع أنه كان لسوء الحظّ قرب موقع تدمير فندق هيلتون هافانا. هناك طبعاً دقّ فظيع، ربما أخذه أبي في حُسبانه. وفي بعض الأيام، كان صوت الدقّ والآلات الثقيلة يتلف أعصابنا حتى آخر الليل. في تلك الآونة بدأتُ أحتقر الأمريكان، بمبانيهم البراقة العملاقة ومثابرتهم التي لا تتوقّف. ضوضاء مستمرة، تدفعك للجنون ببطء. وبعد أشهر، قرّرت استئجار مرسم بشقة متهالكة في الدور الرابع بالمدينة القديمة. لو اعترض كالستو فلن يجد ما يقوله، ولذلك لم يأت لزيارتي هناك. الضوء بمرسمي ليس جيداً كضوء المنزل، لكنه هادئ يمكّنني من العمل في هدوء، فكان أن أحببتُ المكان.

بالمنزل شرفة واسعة ترطّب الداخل. الأرضيات ممهّدة بالرخام ونوافذه

واسعة بستائر خشبية كمنزل أمى، مما منحه حساً بالبرودة، فكنا نحتاج مكيّف الهواء الوحيد بغرفة النوم. بُنى المنزل حول فناء مركزىّ صغير، كالمنزل الذى نشأتُ فيه، وحين لا أكون بمرسمي، أواظب على مراعاة ورود منمنمة آخذها بين الفينة والأخرى إلى مستشفى الأطفال.

★★★

بدأ كالستو يكرّس المزيد من وقته لمجموعات الطلبة. وافترضتُ أن موكب الشبان الذين يحضرون إلى المنزل من دون ميعاد، جزء من حركة انخرط فيها كالستو ذلك الحين. كان يبعدنى عن ذلك كله، لكن السياسة فى الحقيقة لا تهمّني. وأن تتشيّع وقتها للسياسة فى كوبا، كنتَ تحتاج إلى هدف وتركيز لا أملك أياً منهما. فقد جاءت جماعات من مناطق غامضة وشكّل المضطهَدون جماعاتٍ جديدة (الطلبة الثوريون، حركة ٢٦ يوليو، حزب الشعب الشيوعي، الجبهة الوطنية الثانية)، وكلّ منها يسعى إلى هزيمة الآخر. ويا إلهى، كان اللّغويّ منسجماً مع المسميات كلها.

★★★

مرّ العَقد وساءت الاضطرابات، كسحابة صيف تمضى إلى الغرب ولم تتأهّل بعد لهبوب الامطار:

عُثر على جثة فى ملعب الكرة، عُذّبت وقُتلت أختان، تحطّمت نوافذ. وليلاً طلقُ نارٍ على المنافذ المفتوحة كعاصف من عالم نصف معتوه. قرأتُ عن رجل فى السابعة والعشرين مات بالرصاص فى لوس آرنوس، وفرّ قاتلوه بسيارة خضراء. وآخر فى الخامسة والثلاثين ضُرب حتى فاضت روحه فى شكارنس. وقُتل عامل فى مابای، لارتباطه بالمرشّح لمنصب المحافظ. عُذّب حتى الموت على سور مزرعته فى بايامو. وقُتل مزارع بالرصاص.

فـلامَ الجـيشُ المتـمـردين ولامَ المتـمـردون الجـيشَ ثم عـاد الجـيشُ للوم المتمردين...

أنصتُّ للعاصفة وهى تتقدّم، وصفحات سريعة من قطرات المطر على النافذة. فرفعنا مظلاتنا، وهطل المطر علينا فى النهاية.

سارت معى للمدرسة صديقة مفضلة صباح الثالث والعشرين من مارس المشرق. حكت لى فى ما بعد أن المدينة كانت تبدو هادئة على غير العادة. ثم هلّت سيارة سوداء مسرعة فى الشارع من مكان مجهول، وقبل أن تدرك صديقتى بلحظات أن الأصوات جاءت من خلفها، ضربوها بالنار. لم تسنح لها الفرصة أن ترى من أطلق النار. فجرت تستنجد وبدأت تدقّ الباب. لكن الوقت كان الغداء والنسوة بالداخل، فترى وجوههن مرتعبات خلف الباب الموصد. دام طلق النار دهراً (بنصّ الكلمات التى استخدمها أصحابى وهم يحكون لي)، وبعد أن عادت ركضاً وتناولت الشاي، أحسّت بالطلقة فى بطّة الساق.

★★★

صحوتُ أبكر من المعتاد. المنزل هادئ عدا راديو بياتريس من الغرفة الخلفية. ضوء الشمس أخضر عبر النافذة. البنايات مصفوفة بامتقاع أخضر. حتى لون السماء أخضر. غادرت من الباب الخلفيّ. ويمضى الناس فى الشارع كالعرائس المتحركة، كلّ حركة محسوبة وزائفة. وهافانا من دون صوت. سرتُ بعيداً عن شارعنا، حول كاسر الأمواج. يتمتم رجال بملبس أبيض فى زوايا الشارع، ملوّحين بصورهم المتّسخة، ولم تستطع السيارات جرّهم من صمتهم. لا أزال أسمع راديو بياتريس، يخبر عن الوقت. الساعة الآن... الساعة الآن...

وراء الضوء الأخضر فى كلّ مكان، وراء زوايا المدينة الخامدة، قرقعة كتمزّق فى الشمس. جريتُ مع الآخرين، أسابق حيث ينحلّ النهار. اندفاع بخطر لذيذ كنشوة أستنشقها. من البنايات يجرى نسوة ورجال، منسكبين نحو المفارق إلى الشوارع بحركات مائعة، طبيعية جداً. طلق نار وآلات تفرقع وأنا أجرى. تكاثفت الحشود، ودم حول جرح.

صاح امرؤ إنهم غصبوا القصر الرئاسيّ. ومحطة الراديو فى أيدينا. لكن لون الظهيرة أخضر من ضوء الشمس. تدور الحكاية مثل أيدٍ على ساعة تلقطها بأيّ مكان. والشمس بعيدة، احتفال موقّع على صرخة واحدة. ورصاص كمطر مفزع فجأة. دم يعتم الخطوات. أوجه تنسحق إلى المفارق. تنعكس الحشود حولى بغتة. ترتطم ركبتاى بالرصيف فأسقط هامدة، وقلبى يدقّ فأسمع صداه.

ثم صوت امرأة صقله الدمع: آكيفيرا مات!

خوسيه انطونيو آكيفيرا*، الضائع الرائع، قبل أن تصادفه الرصاصة الأخيرة قرب السلّم الكبير. يا للجمال الذى يَسِم هؤلاء الرجال. لحظة عصفهم بالطاغية ظهراً. وإعلان النصر وهم يغرقون فى برك جامدة.

بعد آكيفيرا، أرقد يقظة فى الفراش ليلتين. لا آكل غير الحليب والسكّر. عثر بى كالستو ذات صباح على السلم الخلفى، تلفّنى بطانية، وأنا أردّد فى بطء: يا أخضر، كم أحبك يا أخضر. انفجاريات خضراء. أوصال خضراء.

★★★

طاشت القنابل فى زوايا الشارع، فى المدارس، خارج دور السينما. رأيتُ بكلّ مكان أوجه ١٣ مارس المسحوقة. ظلّ طائر يذكّرني: جريتُ للقصر مع الآخرين، وكلّنا نجري. ثم نهض الحَمام بالساحة ككلٍّ واحد، حجاب

---

* Jose Antonio Echeveria زعيم ثورى طلابى كوبى (١٩٣٢ – ١٩٥٧) ألهم بخطابه (ثلاث دقائق من الحقيقة) الشاعر الروسى يفيتشينكو إحدى قصائده . (م) .

أسود ناهض. بعده مزّق الرصاصُ الزمنَ، فاتحاً النهار على آخر، فجعلنى أرى الجانب الآخر من الأشياء. وأنا فتاة، ظننتُ الحبّ وحده سيغيّرنا.

★★★

الحبّ. كنت أستخدم الكلمة غالباً. تطلبين منى أن أوضّح نفسى، أحدّد ما لم أفهمه؟

ابنتى العزيزة، أبكى لأرى كم فقدتك. يا ودودة. لا أستطيع إبعاد عينىّ عنك. تبعتك بالشارع حتى استدرتِ ومضيتِ. اليوم التالى سارعتُ وراء خطوتكِ على الرصيف مرّة ومرّة، فى رعب ودهشة، كيف يرتاح عالم على تاليه فى خفّة.

★★★

حين أفكر فى ماضيّ الآن يبدو بعيداً، كأنه الهند أو القمر، أبعد كما يبدو من مستقبلى تقريباً. مع ذلك، حين قلبتُ حياتى كالبلورة، انكمشَت فى يدي. لتناسب مساحة قبضة.

كُونى حذرةً يا ابنتى؛ فالذكرى أول الرواة. قد يزيّف التاريخ أيّ امرئ، فهى مسألة بسيطة؛ هناك صنوف من الناس، سياسيين وكتّاباً على الأخصّ، جعلوها صيحتهم. وقد يبسُط المرء السنين، يسجّل قوائم طويلة تستدعى لحظات قليلة. قد نقول إن مفارش باتنت للأسرّة "خالدة"، أو جوارب نابولى للرجال، أو بولفو ترى فلوريس (أراها بزاوية المتجر علباً حمراء مكوّمة واحدة فوق الأخرى)، أشياء تومئ إلى معنى يخصّ مَن عاش فى زمان معيّن بمكان معيّن. أغنّى لتلك الصلصلة، محمّلة بالمعنى "لذيذة حتى النقطة الأخيرة". أتجاوز بالمدينة القديمة نافذة مفتوحة فى شقّة حيث يلبس رجل قميصاً أبيض مفتوحاً وهو يميل على راديو لضبط تردّده على أخبار مفزعة. تلميحات تفتح على فساد.

الآن، فى آخر الليل، ألتقط محطات ميامي، فأسمع الصلصلة نفسها، وأظنّ الأشباح تكلّمنى من جديد.

★★★

استبقيتُ طويلاً ذكرى غريبة من طفولتى. لا صادمة ولا سعيدة. تافهة، لا تعنى شيئاً. لكنها تطفو مكشوفة أحياناً حين أستسلم للهدوء. وها هي: لم أزل طفلة، أستدير إلى غطاء اللمبة، عليه ملصق صغير لقدمين أرجوانيتين. تحتفظ هاتان القدمان الأرجوانيتان بلونهما فى ذاكرتى عبر السنين مهما تعاقبَت. يقلقنى غالباً أن أتذكّر الملصق الصغير مميزة تفاصيله بوضوح بينما تتلطّخ أوجه مَن أحببتُ وتشحب فى الذكرى كأنها بليَت من الاستعمال. سألتُ أمى عن هذا مرة. أخبرتها بصوت عالٍ عن أملى أن تنكشف الحياة مثل كتاب بكلّ تفصيل مبنيّ على آخر قبله، ليحوز نتيجة مرضية. فقالت: لكن الحياة ليست سرداً من مدّ وجزر، وشدّت شَعرها للوراء بشكل كعكة ناعمة. نعرف ذلك مؤخراً. فهذه النُتف من الذاكرة تتحرّر من عِقالها، وفى الريح ترفرف كى تفطرَ القلب، ذكريات أهمّ من الجميع. ذكريات توحى أن الحياة نهايات مفتوحة، أحداث هامشية لا تحملها الحكاية التى نرويها عن أنفسنا.

سامحينى يا ابنتي. لقد أثقلتُ على نفسى لأنشئ تاريخاً لكِ، لأسطّر تفاصيل حياتكِ بهدوء؛ لأصل الأحداث واحدة بأخرى. لكن جهودى الأولى باءت بالفشل. فلم تُخلف لى غير بقع من الذكريات التى سطّرتها راياتٌ من الريح.

★★★

بعد النصر...

لا أعرف إن كان بمقدورى وصف شعورى لكِ حينذاك؛ إثارة غريبة مميتة

عن عالم متحول، فكلّ ما هو رزين وعاديّ جرفه التيار. ركب المستقبل مركبة حربية وانضغط الناس لرؤياه معاً وهو يمضي. وكنا سعداء.

وذلك النخيل، الشاهد الأزليّ على الرياح العاصفة. آه يا كوبا، بلدى الجميل!

★★★

أول يناير، كم كان هادئاً. هدوء مريب كأن الجميع يرقب رؤية ما حدث فعلياً. لم يستعدّ أحد للاحتفال فربما كان رحيل الطاغية المفاجئ مجرد خدعة. لكن باليوم التالى انسكبَت حشود بالشوارع، كأن اضطراباً كبيراً أفرغ منازل هافانا. واصطفّ رجال ونساء أمام كوترو إلى القصر ونحو كولومبيا. أمام ووراء تجمّعنا، علّق الناس أعلام ٢٦ يوليو بالأحمر والأسود. لم أنضم لأيّ من هذه المظاهرات. فمنذ أن وعيتُ على الدنيا يتملّكنى خوف مفزع من التجمّعات. لكن من غرفة مرسمى الصغيرة، ولعدة أيام، كنت أسمع هدير الناس كوحش نبعَ من البحر. صرخات، طلق نار، تحطّم زجاج. لا بناية إلا وفيها على ما يبدو متجر واحد أصابه الدمار. ولا يوجد هناك أحد، مثلي، ليرى فيقول إن الزجاج تحطّم من مرارة أو انتقام أو جشع أو حتى حسد. كلّها تفسيرات خاطئة. أحداث جانحة، ومهما كانت عواقبها فهى نادرة ونقّالة كحبّ عظيم. عاش الجميع وعانى من القنابل، الثورات، الزلازل، الأعاصير؛ وإن صارحوا أنفسهم لأخبروك أنه بين أعماق خوفهم كانت البهجة، كأنها شيء مُفتقَد من حياتهم حتى ذلك الحين. فى أول أيام يناير، كان الهواء رائقاً والليل برداً. كأنك صغير وتعرف فرحة أن تكون كبيراً.

أذكر مرورى أمام محلّ مجوهرات فى سان رفائيل أول أيام يناير. الواجهة محطّمة. مع ذلك فالجواهر فى عُلبها. وقفتُ طويلاً أمام الزجاج المنتثر، أحدّق فى عِقد مزيّن بصفّ ياقوت أحمر، كقطرات دم صغيرة.

★★★

قرب نهاية يناير، ألغيتُ أنا وزوجى احتفالنا بالثورة. فكّرتُ فى الوقت نفسه أن الثورة لا تعرف ما يجب أن تكون عليه، كما لا نعرف ما يجب أن نكون عليه.

منزلنا يزخر بالحفلات. حتى فى أشهر الصيف تجد فرقة صغيرة فى الفناء، فتسرى الموسيقى بأعلى السطوح، ويبدو الصوت ليلاً كأنه يهلّ من أعلى، وتبدو النجوم نقاطاً من نور على قمم الشرفات.

كنت ألبس فستان حرير أزرق. وقَضّيت الظهيرةَ بمحلّ تجميل، حيث جمّعت الفتيات شَعرى الطويل بضفيرة عند منبت عنقى وحلقن الشعر الشارد ووضعن بودرة خُزامى ودعكن كتفَيّ بزيت الورد. نزلت السلّم كأنى فى جنّة تلك الليلة وأسعدنى ما أحدثتُ من همهمة، بالوجوه التى دارت نحوي. لطّفت منى لحظاتُ تلك الليلة؛ وكلّ ما نفعله، ما نفتّش عنه (جمال، ثروة، حتى التعلّم) كان فى صُلبه طلباً للقدرة. منذ صغرى وأنا أعى ما أملك من جاذبية عند رجال محدّدين، لكنى لم أفهم ذلك حتى كبرتُ. وعبر سنوات قليلة، عشتُ روعة الشباب وخبرة منتصف العمر فأحسستُ أنى وجدتُ شيئاً ثابتاً يدوم. وسكرتُ بما أملك من قدرة. مرّ ذلك كلّه فعرفتُ أخيراً أن الجمال جعل عالمى صغيراً، وأنى خبرتُ القليل من الحياة.

رقصت مع كالستو تلك الليلة. موسيقى أبواق على نور القمر، والشموع تتراقص فى نسيم يناير الرطب. وقرب منتصف الليل، بعد الطعام والشراب، سمعنا عويل صفّارة إنذار بعيدة وانتظرنا حتى صار فوقنا الصوت. صَفَقَ

أبواب سيارات. صراخ. لكن كالستو ظلّ هادئاً. ظنّ الأمر مفاجأة، زيارة تسرّ ضيوفه، ترفع مقامه بعينَى زوجته... شيء كالحلم أن تستعيد سرده الآن. لم أحكِ هذا من قبل. وكى أنظُمه فى كلمات يبدو لى غير واقعىّ. لكنه حدَث؛ كلّ شىء على إيقاع ذكرى مفتّتة، قد حدَث.

★★★

وقف عند الباب الأماميّ، ذراعه فى جبيرة. سار إلى الباب أمام الآخرين، شعره ملبّد وملابسه متّسخة، سار وعيناه نافذتان.

★★★

يقول زوجى بصوت مغرور: الرفيق جيفارا، أقدّم لك زوجتى ديلندر. يرتدّ الثوريّ طفيفاً فتلتقى عيوننا زمناً خاطفاً. وفى ما بعد بكثير، أرى أن هذه الذكرى هى ما أدّت بنا إلى تفاهم مقتضَب مع بعضنا البعض. لكنى لا أعرف الآن، لِمَ أفعمنى وقتها حسٌّ بجُرم غريب لم أحدّد مصدره.

★★★

أخذ آرنستو يدى فباسها. وأذكر ضحكة كالستو على هذه اللمحة، ضحكة طائر صغير. قال كالستو: لزوجتى حديقة غنّاء فى الفناء. سيفوتك ألا تراها. تزرع ورداً منمنماً، تخصّصها. توقّف ثم أضاف: وأيام الخميس ترتّب ١٢ باقة فتأخذها للمرضى المحرومين فى عنبر الأطفال. مال آرنستو حتى خصره عند آخر ما سمع. أردف كالستو: وهى أيضاً قلب بديع، يرعانى.

رقدتُ تلك الليلة جنب زوجى، الذى أحبه ويملأنى ويعبدنى، وأنا أفكّر فى الآخر الذى أرعبنى وصدّنى برائحته وفُحشه. أحسستُ كالستو يتحرك جنبى ثم يتنحنح. قال: يبدو أن الثوريّ مسرور بالتعرّف إليك. سكنتُ لحظة ثم قلتُ: بذىء، أعرف هذه النوعية. وفوق كلّ شىء، فاحش. لكن ما قاله

كالستو بعدها فاجأنى قليلاً. قال ببطء وهو يتحسّب لكلماته كالمعتاد: ليس أمراً هيناً أن يكون لك أصدقاء مهمون. قلتُ لزوجي: آمل ألا يجلب علينا المتاعب. فردّ: لا أظنّ. على الإطلاق. لكنى صمّمتُ على فعل شيء حين تجيء المتاعب. قال: عدا بعض الكتابات.

أغلقتُ عينيّ أنصتُ إلى هبوب الريح، لكن الليل ساكن فلم أسمع غير أنفاس زوجى الخفيفة جنبى، والتى تثاقلت بعد زمن، فرقدتُ أنصتُ إلى صعود وهبوط أنفاسه.

★★★

بعد أيام كنتُ بالفناء، أشذّب شجيرات الورد الأبيض المنمنم حيث زرعتها فى بقعة ظليلة. شجيرات بديعة، وكان يفتننى منها تويجات الورد الغافية مستغلَقة مشدودة على وشك التفتّح، وسع الذراعين، فتبين عن قلبها الداكن الناعم حيث ينتأ البرعم. أحضر أحد أصحاب كالستو شتلته منذ سنين من مكان بشمال أمريكا. ملتُ فى البداية لاستنباتها داخل المنزل لتتنسّم البرودة، ثم زحزحتها تدريجياً خارجه، حركتُ الأصيص قرب النوافذ، وإلى الشرفة ثم رحتُ أخرجه للفناء مدّة ساعة كلّ صباح فى الشتاء، بعده كلّ صباحين، وأثناءها كبرت الشتلة فأمكن زرعها، فكانت تُمضى معظم النهار تحت شمس استوائية.

كنتُ أكلّم النبات وأنا أقلّمه، بغناء رخيّ وتودّد، فلم أكد ألحظ رنين الباب الأمامى. بعد لحظات سمعت بياتريس تنادى، فتضايقتُ قليلاً (تضايقت لأنها طوّرت مؤخّراً عادتها بالصراخ عليّ بدلاً من السير حيث أكون) فمسَحتُ يدَيّ فى بنطلونى ورحتُ للباب. قدّم رجل لى نفسه على أنه الرفيق س قائلاً: لديّ أوراق من القائد جيفارا للسيد ديلندر. فأخذتُ الأوراق وشكرته. رأيتُ أن أستبقيه لتناول بعض القهوة فرفض، لكنه لبث هناك لا

يلوي. سألني: أنت إذن تريزا ديلندر؟ فرددتُ: نعم، ويدى على الباب. سمع القائد مديحاً كثيراً عن لوحاتك. فابتسمتُ أومئ بنوع من الشكر، تُلجمنى المفاجأة. ثم واصل: سمع أنها بديعة. صار وقوفى نوعاً من الغباء. كما أفكّر فيه الآن وفى كلّ ما قلته حينئذ.

عاد كالستو فأعطيته الأوراق، سار بها إلى مكتبه، وأغلق خلفه الباب.

★★★

حين يتحسّن الجوّ أسير أميالاً إلى مرسمى فى آخر المدينة القديمة وأمام متجر انكانتو الكبير، بزاوية شارعَى جوليانو وسان روفائيل. بعد الثورة بأيام، كان الناس يملأون الشوارع والمحلات وهم يتنزهون، لكن واجهات انكانتو ظلّت ثابتة، ومع الأيام والأسابيع صرنا نرى عرائس العرض الجامدة كمنحوتات عصر آخر.

أروح إلى الداخل غالباً، وأذكر لذّة السير الوئيد بالشوارع الضيقة فى المدينة القديمة وبقلب المتجر الواسع. كان داخله، كما أتذكّر على الأقلّ، ضخماً نظيفاً فنياً يقترب من الكمال، وكنتُ أتصوّره نسخة عن متاجر الولايات المتحدة التى أسمع أنها كبيرة. مجوهرات، كاميرات. وتبتاع أكثر المشايعات للموضة فى هافانا ملابسهن من هناك. تمضى الثورة، فيبدأ الناس الهمس عن مصير انكانتو. قبل زمان قالوا إن الحكومة الجديدة ستصدر توجيهاً لتثبيت الأسعار؛ فى إشارة واعية للماضى الرأسمالىّ. ولدى سماع هذا فكّرت وأنا أبتسم، أن كلّ حقبة تبنى متاحف أشواقها السرية.

كان انكانتو مثل مرسمي، يريحنى فى تلك الأيام. فلم أجرؤ على النطق بالدورة التى اتّخذها قلبي؛ ولا حتى اعترفتُ لنفسي. لكنى اكتشفتُ أنى أسترجع الأماكن الهادئة التى كنت أفضّلها وأنا صغيرة: أبواب مغلقة،

وظلال تخفى ظهيرة سريّة. وحدى مع ألواني، حتى إن خفتُ أنى لن أشتغل ثانية، أنسحب تبعاً لإيقاع الشغل ورائحة الزيوت والضوء القادم عبر النافذة.

كُلّفتُ بمَهمّة كبيرة لصديق من عائلة كالستو. لم تكن من نوع الشغل الذى أؤدّيه عادة، لكنه انقضى جيداً. كُلّفتُ بتصوير مجموعة من مشاهد ميامى فى سبع لوحات. ويُفترض أنها ستُعلّق بردهة فندق جديد مزمع افتتاحه فى الحيّ، يبنيه أحدهم على جزيرة باينس. وأذكر يوم جاء بمخطّطاته. كان مونكادا قد احترق فعلياً، الشارع المكافح يتوهّج، كثير ممن نعرفهم نقلوا أموالهم إلى ميامي، لكن صاحب الفندق مليء بالخطط. سيطلق على حيّه "ميامى الجديدة"، لينافس به تلك المدينة الأمريكية، هكذا أخبرني. وأذكر أنه وضع إعلاناً بالمجلات فى ديسمبر (قبل أيام من الثورة) عن بنائه الصغير المرح. وقد حفّه بالأمل: معدية جديدة! خطوط طيران جديدة من فلوريدا! وغابة مانكى المثيرة!

بعدها أخذتُ أطلق عليه مونو. فهو رجل غريب المظهر، نو وجه من تلك الوجوه التى تبدو عطوفة من الانطباع الأول ثم تكشف عن نفسها بعدئذ فتبين شيئاً آخر. شفتاه ممطوطتان خارج فمه بشكل تظنه ابتسامة أو أن أسنانه معزولة مقموعة قليلاً. كما يشحب جلده حين ينفعل، فتشقّ آلاف الشعيرات الدقيقة دربها حول أنفه. لا أظننى أعرتُ انتباهاً لأيّ حوار وجّهه لي، فقد كانت استعراضاتُ وجهه تفتننى كثيراً. وعدنى مونو بمال وفير، عشرين ألف بيزيتا (وكان ركوب الباص يكلّف وقتها ثمانية سنتات)، فقبلتُ المَهمّة. لكنى لم أزر ميامى من قبل، فأرغمتُ نفسى على العمل من الفوتوغرافيا وبطاقات المعايدة وتأويلات الآخرين. وأصابنى التوتّر مما آذانى عميقاً. فهى طريقة شنيعة لصنع الفن؛ ومع الزمن أدركتُ جُرم الكذبة،

لكن الوقت قد فات وأنفقتُ المال ولزم أن أواصل الشغل. غريب أن أفكّر فى ذلك الآن. وقفتُ بمرسمى فى هافانا، أحاول يوماً بعد يوم رسم ميامى على أنها مدينة الأحلام؛ لكنها كانت مدينة الأكاذيب حقاً.

قضّيتُ أسبوعاً كاملاً أحدّق فى الفوتوغرافيا التى أحضرها لى مونو، لتحديد المشاهد السبعة من تلك الصور: شاطئ طويل ممهّد، بنايات تتدلع فى آخر الخليج، مظلات على بيوت بيضاء فى كوكنت جروف. ثم عدتُ من جديد إلى صورة زوجين يقفان جنب نخلة أمام فندق قديم. صورة بالية إلا من رقعة رملٍ بيضاء فارغة، وطريقة مسك المرأة بذراع الرجل، فأصابعها محنية كأنها معلّقة بخوف. وفى عينَى الرجل شيء غير الحزن، سأم لم أستطع فهمه فأثار انتباهي. وضعتُ الصورة على حامل ورحتُ أفحصها يوماً بعد يوم. الأصابع المحنية، العينان المرتخيتان، الشاطئ الأعزل؛ قد يرسمه المرء لطخة سوداء على خلفية صفراء براقة. أما الفندق القديم، فعموديّ مرتّب.

كانت الصورة تحثّنى على رسم لوحة حقيقية، بغموض عينَى الرجل المشدودتين إلى ما تحتهما من مشهد سعيد. لكنى لم أستطع وضع الفُرشاة الأولى. عدتُ أتصفّح فوتوغرافيا ميامي، فقد أبدأ مشهداً آخر. لكن كلّما تطلّعت فى الصور بدت وكأنها ملتقَطَة من مكان أجنبيّ، مكان خياليّ. هلّت الثورة وكنا فى يناير ثم فبراير ولم أنته بعد من اللوحة الأولى.

انغمستُ فى عملى ذات صباح باكر والريح تصفّر بالحارة، فتتخلّع النوافذ وهى تمضي. لو فُتح الباب خلفي، فلن أنتبه إليه. هناك أولاد يسكنون ذلك الدور وعادتهم أن ينطلقوا عَدواً، فكنتُ أترك الباب مفتوحاً كى لا أسمع دقّاتهم. ظننتهم يتجولون داخلين، كما يفعلون أحياناً، ليشاهدونى

وأنا أرسم. سمعتُ وقع أقدام. بعدها رائحة، كأوراق مبتلّة أو أرض عتيقة أو معدن.

درتُ سريعاً إليه، وربما لهثتُ. أخبرنى فيما بعد أنى لهثتُ، رغم أنى لا أذكر. أذكر فقط رؤيته هناك وحسّ غريب سنح لى، وفيما عدا تلك اللحظة الوامضة بمنزلى، لم أتطلّع فيه جيداً بصورة شخصية. فى وقوفه أمامى بدا مثله فى الفوتوغرافيا، وغيره تماماً فى الآونة ذاتها. هناك أشياء، طبعاً، لا تستطيع التقاطها الفوتوغرافيا. آه، الرائحة. والاستدارة، الوحدة الكليّة. يبدو وجهه التامّ لطيفاً عطوفاً يكشف نفسه، بينما يختلف عن شكله الجانبيّ. لمحات، حركات؛ وكلها أشياء تدخل فى نطاق صورة شخص، أو حتى شىء.

كان حيوياً جداً، رجل من لحم ودمّ، لكنى رأيتُ (وأنا أقف بألواني) الموتَ يتخلّل هذه الحياة مشمولاً. قرأتُ موته بأماكن غريبة: مما تخيّر أن يحكيه من قصص، من مشيته، منْ النسيم الذى يستنشقه صدره كفراق مفزع يلوى قلبه. قبل ذلك كلّه، قبل أن أعرفه، فى مرسمى ذلك اليوم، استطعتُ رؤية موته الذى يغلّفه فى سكينة.

★★★

لا أذكر ما قلتُ يومها. شىء مبتذل ندمتُ عليه مؤخراً، من دون شكّ. أذكره وهو يضحك. أشار إلى رسمة بزّاوية، سألنى عما تعنيه. قلتُ: لوحة شبه منتهية لزهرة أوركيدا، طلبها صديق. فابتسم بشكل غريب، كأننى طفلة وهو يوشك أن يوبّخنى على جُرم جنيته. ثم دار بعد لحظة نحو اللوحة. أذكر أنى رأيته يسير لأول مرة، وفكّرتُ أن بعضهم يتحرك بهذه الأريحية فى العالم، كأنهم عاشوا فيه من قبل حياة أخرى. وقف لحظات أمام اللوحة غير المنتهية ثم عاد، وبالبسمة نفسها قال: هل يلزم أن تجمّليها للغاية؟ فلم

أجاوب بسمته. أذكر أن أُلفته لم تُرحني. كما تملّكنى حسّ بأنه يهزأ منى. استجبتُ لشيء عبثيّ؛ ظننتُ أنى قلتُ: نعم، آهٍ، فعلاً. وعرقتُ فجأة، فأخذتُ فرشاتى ثانية، وكان ما فعلتُ شيئاً فظاً. بدأتُ غمس فرشاتى باللون وهو صامد هناك. ثم تطلّعت فيه أخيراً، قلتُ إن زيارته شرف كبير، وسألته إن كان يحتاج شيئاً. تصوّري. عجيب ما قلته للرجل. لكنه ظلّ هادئاً ولم ينفر من عصبيتى. قالَ إنه سمع عن لوحاتى وأراد أن يراها بنفسه، وعلىّ أن أتذكّر أثناء عملى أن المجد يأتى بالنضال. فابتسمتُ قليلاً. سار حول مرسمى قليلاً يتطلّع فى اللوحات المختلفة، يخطو أحياناً للوراء فيلقط لوحة من أعلى ويُجرى يديه ببطء على طولها. كنتُ أراه يتحرك فى مكانى لكن هذه المرة من دون ألوان أو أصوات بحلقى؛ مجرد إحساس بأيام كنتُ أعرف أنها ستنتهى وهناك ما يُشرف وراء حروفها المتّقدة.

★★★

صرتُ أتقلّبُ تلك الليلة فى فراش حار. فقد سمحتُ للأرجنتينىّ أن يُخزينى بلكنته المرحة وبسمته الاستهزائية. رائحته كحيوان الغابة. مَن هو ليخطفنى هكذا؟ أغلقتُ عينىّ فشعرتُ فوراً بنوم ضحل لا أحلام فيه، مجرد أشكال ملوّنة تنسلّ بعضها فوق بعض. مسكتُ الألوان، على يقين أن بينها امرأ بعينَين غير آدميتَين لم أره من قبل. وحين أوشكُ على النوم أحياناً تهلّ علىّ أفكار خيالية كهذه، رؤى لا أستطيع ذكرها فيما بعد أو وضعها على ورق، وحين أستيقظ تملأنى بمعرفة جديدة. ولا تزال هذه الرؤى ترقص وترفرف عند الحافة المعتمة من خيالى وتعيش وتتغذّى من حياتى المتنبّهة.

صحوتُ منتصف الليل. كالستو راقدٌ جنبى نائماً. أذكر أن النوافذ كانت مفتوحة والليل رطباً، فظننتُ صوتَ البحر، بتحرّره من ضجّة النهار، طافياً

فى الغرفة. كلّ شىء يستحمّ بأزرق نور الليل. الستائر بيضاء تنتفخ مع النسيم. وكنتُ شبه مغمورة بالنوم ونسيتُ الأحلام، فبدا المنزل فاتناً فجأة. تسحّبتُ من الفراش لئلا أزعج كالستو.

صببتُ لنفسى بالدور السفلىّ كوباً من الماء، فلم أجد ألذّ منه حينئذ. وسرتُ عبر عتمة المنزل حتى وصلتُ الفناء، فوقفتُ طويلاً. فى نور الليل، كان وردى المألوف أشدّ إثارة وغرابة. وقفتُ، أراه يتمايل ذاهباً آيباً، ذهاب وإياب ناعم، فتعرونى رِجفة من وسط ظهرى لأسفله وحتى أطراف أصابعى.

★★★

طيلة الأسبوع التالى، ظللتُ ألحّ لملء اللوحة بأرواح زرقاء وأزهار شائهة، يبدو العالم الآن صغيراً وحقيقياً بصورة جزئية. رحتُ أنصتُ إلى كلّ صوت بالصالة، لكن طيلة الأسبوع ظلّ الأطفال هادئين. غادرتُ مرسمى صباح الجمعة فى نزهة. الهواء رطب والسماء زرقاء، فخطر لى أن الشتاء بالأماكن الاستوائية موسمٌ للتجدّد.

تفجّرت زهيرات قرنفلية فى أصغر بقعة من العشب، أوراقها متوهّجة جديدة، خضراء مموّهة، أما نُثار الزجاج على الرصيف فيُحييه ضوء الشمس، ناطقاً بكلّ جديد. سرتُ فى الحيّ الصينيّ، بحواريه الضيقة الملتوية، غسيل معلّق، ومياه تنساب بالشوارع. لا هدف من نزهتي، ولا أفتّش عن أحد. لكن الشوارع ملآنة بشباب الجنود الملتحين، ولم أتحمّل نوبات قلبى حين رأيتُ أحدهم ورائى.

برهةً مرّت، فوجدتُ نفسى أمام الضباط الأكبر فى تيمبو *. الرصيف متّسخ بورق صحف وحمّامات ممتلئة ومقاعد. واجهاته كلّها محطّمة، فافترضتُ أن المخرّبين نهبوا كلّ ما به قيمةً داخلها. هناك سلّم صغير يتعارض مع المكان فرحتُ أسأل عن جدواه والمشهد كلّه مسطّح. به أثر غريب دام أكثر من ثانية، من قلقى ربما على المَهمّة. لكن المشهد تداعى فى هذه البرهة لمجرد انطباع سوريالىّ: سلّم، جُذاذات صحف، وفوق ذلك كلّه يافطة باهرة: تيمبو. صرنا مجانين قليلاً. بدأتُ أضحك دونما سبب غير تفكيرى اللاعقلانىّ، فضحك معى ثلّة من المحتشدين أمام الحطام.

وقفتُ عند مكاتب تيمبو المدمّرة رِدحاً من الزمن، يشدّنى جماله الغريب الفوضويّ وسط جمال المدينة. كأننا قمنا بعملية فصد دم قديماً، بعدها صار كلّ شىء أفضل.

★★★

اتّخذتُ طريق عودتى الطويل، فسرتُ فى كارلوس الثالث حتى وقفتُ برهةً عند قلعة الأمير، وحين وصلتُ المكان وجدته مزدحماً بالجنود والمنظر معظمه محطّم، فواصلتُ إلى المستشفى وعبرتُ شارعاً حتى وصلتُ بعد وقت طويل إلى المنزل ببُرجيه المربّع والصغير وزخارفه المروحيّة المفرَّعة. على عمودين إغريقيين تقوم الشرفة الضيقة. عرفتُ أنه منزل إدى بما أمامه من تراث عتيق ميت. ضمنه، رجل حليق نظيف فى الثلاثين، يحمل يافطة تقول: هذا ندائى الأخير!

★★★

وصلتُ مرسمى الصباح التالى باكراً. الضوء مائل والجوّ برد. وقفتُ برهة تحت بقعة ضوء الشمس. حين أقف أمام اللوحة، يمسك بى دائماً

---

* Tiempo صحيفة يومية ، بمعنى (الزمان) م.

خوف مريع، يشلّنى - فأرتّب حزمة فُرَشى بالأرقام، أكنس الأرض، أعبث بالستائر - لتفادى العودة إلى العمل.

وتمرّ معظم الأيام دون أن أخرج بتلوين بوصتَين من اللوحة، عندئذ كنتُ أكره نفسى فلا أنظر إلى المرآة إلا نادراً. وغالباً ما أحسّ وقتها بالعبث! وأتساءل أحياناً ماذا لو رسمتُ لوقف هذه المشاعر العبثية المفزعة والتمتّع بما أناله من بهجة الشغل. لكنى بعد الوقوف برهة فى نور الصباح الشحيح، مضيتُ إلى اللوحة كما لم أمض من قبل، جوعانة شغوفا، للمسة الفرشاة ورائحة الدهان وحرارة العمل. ظللتُ أرسم طيلة النهار، دون أن أتوقّف حتى للغداء. واليوم التالى نفسه. والتالى. طيلة أسبوع، تغير مشهد شاطئ ميامى تدريجياً، فاقتربَت عاصفة، ودون عزم منى تقريباً دنا الزوجان إلى الشاطئ المحفوف بنخل بنىّ وسط ريح وبحر أبيض منبسط؛ نُثار لقطته من واقع خبرتى بالحياة، وهلّ رشاش أبيض من طبيعة جوّ ردىء. وبنهاية الأسبوع آلمنى ذراعاى ورقبتى فقضّيتُ وقتاً طويلاً بحمّام دافئ، وفكّرتُ أنه لا مناص من أن مونو سيأخذ اللوحة ويستلقى هناك بالماء وسط انتعاش أسبوع غريب (ظننتُ نفسى بالغة العبقرية) فانقبضتُ مع حزن عميق لا يُفسّر. وبدأت الكآبة تشدّنى إلى ضَرعها دقيقة تلو أخرى. فقضّيتُ ساعات فى الصباح التالى وأنا تشلّنى الحركة، أحدّق فحسب فى فضّة الضوء بالستائر المغلقة، والضوء فى خيالى شىء جامد يسعى لخلع النوافذ رويداً رويدا.

★★★

عدتُ إلى مرسمى بعد أيام. سرتُ كالسابق، فاتّخذتُ الدرب المُفضى بى أمام انكانتو. أمام واجهات العرض تريّثتُ برهة كما أفعل غالباً، نظام آلفه قليلاً ويبدو أنه يهدئنى ويروق لى؛ حيث عرائس العرض نظيفة تامّة بأطرافها الناعمة وقبّعاتها الصغيرة.

وفى مرسمى، فُتح الباب على الرعب القديم. فسرتُ أفتح الستائر. ووقفتُ بعد قليل أمام اللوحة فأنهيتُها بنوبة انفعال. بدت خطوطاً فجّة وألواناً مبهرجة. ثم بدأتُ سريعاً تلوين كلّ شىء، وخلصتُ أخيراً إلى أن أعملتُ سكين المقشط باللوحة كلّها. فمزّقتها إرباً بحركات واسعة طويلة ثم جمدتُ هامدة على مرتبة صغيرة فى زاوية الغرفة.

عدتُ إلى منزلى متعبة لكن منتعشة، فأدهشنى وجود كالستو هناك، راقداً فى الأريكة جنبه كأس صغيرة من "الروم". دون أن يرحّب بى، قال: فاتك معجبكِ الثورىّ. سكنتُ حيث وقفتُ، فبُهت كالستو مما عرانى من تغيّر مشؤوم، ثم قال: اسمعى، علينا أن نشايعه، نشايعهم. قلتُ: ولِمَ جاء؟ وأراحنى قلقى منبثقاً كالغضب. رفع كالستو علبة، وقال: هناك عمل لى. قلتُ: أىّ عمل؟ فهزّ رأسه. حتى اليوم، لا أعرف ما سيطلبون منه فعله. ثار شكّى أنه لا جدوى مما يفعله بعلبة ورق عديمة القيمة يرميها آرنستو أو سكرتيره بين فينة وأخرى. أظنهم يراقبونه. لم يفهم أحد كتاباته ليبدأ منها. وفعلاً، بدأ بذر شكّ أسود نحيل ينخر قلب الثورة.

بلّغتُ كالستو أنى لا أودّ رؤية كلّ ما يخصّ الرجل. قلتُ: شيوعيّ دجّال، ولا أحبه. ثم أضفتُ (تبعاً لما كنتُ عليه من فزع): وهو زير نساء: بالضبط من هذه الفئات الثلاث. هزأ منى كالستو. وقال: أنتِ على خطأ. فهو يمنع رجاله من الذهاب للمراقص. ثم أضاف: وحين علم باتّخاذ بعضهم خليلات يواعدونهن بين غابات قلعة كابانا، أقام لهم حفل زواج جماعيّ. كما يعشق امرأته. أىّ سيقترنان قريباً. سمعتُ هذا فتمهّلتُ على الأريكة وجلستُ قرب كالستو. فواصل: يعرف الجميع بأمر خليلته، وأنا ضمنهم. شقراء جميلة.

أخمّن أن المتمرّد الأرجنتينيّ ليس ثورياً في نوقه للنساء. وأردف: كلّهم، من باتستا إلى جيفارا، يعشقون نمط الشقراء الجميلة.

★★★

بدأ الجوّ يتغير في مارس. لم أسمع عن مونو من زمن، لكني أذهب كلّ صباح إلى مرسمي لأشتغل باللوحات. لا أعرف لماذا أعود مرة ومرة، فقد وجدتُ العمل صعباً وكان يصدّني عن اللوحة نفورٌ واضح، حتى لقد تساءلتُ مرات لِمَ لا أبحث عن شغل أفضل بمكان آخر.

لم أفعل شيئاً، في أكثر من صباح، عدا الوقوف لدى النافذة أراقب سحب الصيف الهمجيّة القادمة بظلالها على المشهد تحتها، بينما الجنود حشرات تحت سماء هائلة. قضّيتُ أياماً هكذا، أعمل نادراً، أقف لدى النافذة، أراقب الريح وهي تقلب الملاءات البيضاء المعلّقة بالخارج لتجفّ بين البنايات، وحين تمسك بها الريح وتنفخها يمتقع قلبي غالباً فأفكّر في آرنستو من جديد.

في مارس أيضاً، رحلت عنا بياتريس. وحده دُهش كالستو. فقد اعتادت الصراخ عليّ عبر المنزل. كما بدأت تنسلّ في الوقت نفسه حول الزوايا بسريّة تامة. أخطو للمدخل فأرتاع من منظر المرأة الواقفة في الظلّ تراقبني. وحين استفهمتُ منها عما تفعل، ردّت: أرتاح، سيدتي. وبدأت تضيف فيما بعد بصورة لا معقولة: بالمنزل عمل كثير، كما تعرفين. وبعد فترة بدأ يتهيأ لي أنها تتخفّى عبر المنزل بهدف عاجل هو ترويعي. فكانت تحدث أشياء غريبة وهي حولي؛ تشوّش أفكاري. أذكر يوماً أني كنتُ في الفناء ولم أكد أميل إلى ورودي فتلفحني الحرارة حتى سمعتُ سيارة تقف عند المنزل. سمعتُها بالغريزة، وقفتُ أمسح يديّ وقلبي في حلقي وجريتُ نحو الباب قبل أن تبلغه بياتريس. حين دفعتُه لأفتحه، أدهشني أن أجد

الشارع فارغاً إلا من ولد يتمهّل فى سيره جنب الطريق مع كتبه. فتسمّرتُ هناك، بإحساس أن السماء تميل علىّ كنفق خاوٍ. أغلقتُ الباب ببطء وأنا أفكّر، درتُ فوجدتُ بياتريس حولى بزاوية معتمة؛ أرعبتنى فذكّرتُها عند كالستو تلك الليلة. تركتنا بعد ثلاثة أيام، ودفعتُ لها أجرة الشهر.

بعد سنين، فتحتُ الباب فوجدتُ بياتريس على العتبة. حكَت حكاية خرافية، أن قوات الأمن أجبرتها على الرحيل حين طلبت منها التجسّس علينا. لم أصدّق. لكن كانت نحيلة مشوّشة وكنت فى مطلع حالة سيئة، فرحّبتُ بعودتها.

لا تزال تعيش معى، فى التنقّلات والعطلات. وتأتى ابنتها لزيارتنا نهاية الأسبوع. وحين نسهر إلى وقت متأخّر، نشرب البيرة فى فناجين القهوة ونلعب الورق إلى الصباح. تتطلّع فيّ أحياناً الابنة الشابة، فتشقّ ابتسامة هزء خطّ شفتَيها، ويتحوّل الزمن فأتصوّرك مجلّها تجلسين أمامى، ويسرى بى أسفُ عجوزٍ تودّ لو عادت السنوات.

★★★

أصحو ذات صباحٍ باكراً قبل طلوع النهار، بى صداع يقهرنى طويلاً حتى لأفكّر فى تمزيق جلدي. أشقّ طريقى فى الظلام إلى الباب الأمامىّ، يبرق أزرقُ بالعتمة. أخطو منه كأنى أعبر حائطاً من ماء. أطفو فوق الشارع، حتى أصل شاطئ مورو البعيد. أجلس على رفٍّ حالم فأحدّق فى القلعة الناهضة من الشاطئ الآخر كقمر باهت قديم بحرف المرفأ. أفضّل الشوارع ليلاً. ينبئ نهار هافانا عن كثير. فهو مومس متوحّدة تحكى كلّ شيء، توضّح كلّ شىء قبل المزاد. أما الليل فى كوبا فهو نوم، يهدّئ التفاصيل ويمحو التوافه. يربض حول أطراف المدينة، يلمّع عظامها كالماء يطوى حوض السفن.

وقفتُ بالمرفأ أتطلّع فى قلعة كابانا. جدران حجريّة مضاءة ببطاريات وامضة، كعيون هنا وهناك تُفتح بواجهة زائفة غير قابلة للنفاذ. كم من حكايات لم تُروَ خلف جدرانها الحجريّة السميكة. كم من أحلام مكبوتة. مع ذلك، تبدو الجدران العتيقة من المسافة المائية ناعمة، مثل فلّين، مثل شىء ألُاطفه. أعرف أنه بالداخل، أتشمّمه من الشاطئ البعيد. لقد أنهَى تجربة للتوّ، ويجلس جنب دوكو على الأريكة. مساجين كُثر، مئات، آلاف، بعضهم دون أسماء، بعضهم يترجّى بعيون حمراء أمامه؛ بعضهم يقف ساكناً مستقيماً، ميتاً تقريباً. أراقب أيديهم شاحبة مرتجفة، أراقبهم يسيرون الهُوينَى نحوه كمن يخشى زلّة قدم. كأن أمامهم شىء لا مرئىّ مُرسَل من عالم آخر فتح أبوابه الليلة.

خارج القلعة، نيران تُطلق ظلالاً منوّعة على تمثال مسيح أبيض يشرف على الماء. شكلان رابضان بالقاعدة، مخفيان بين حجابين من نور وعتمة. يتقابلان معاً. وحيث أقف، أسمع تحت جسديهما حفيف عشب ناعم.

يميل العالم كلّه ليلمسني؛ فتنسحب لتقترب نجوم وسحب لا مرئية وأضلاع شجر. ويهلّ الفجر تواً، فيغبّر أعالى الكاتدرائية بلون القرنفل، وتلمع قبّة البرلمان. ثم يمضى نحو الحواري، كسكّير يعود إلى بيته، يتابع خطوته البطيئة، فينير المدينة ركناً بعد ركن قبل أن ينفجر على الأسطح ويغمر البحر بانعكاسه.

★★★

انظرى فى الصورة التى منحتكِ إياها. فقد التقطته الكاميرا بمنتصف جُملة، يميل للأمام وقميصه نصف مفتوح. مقهور ومغرور على الصفحة.

شخصية كبيرة تستحقّ التقاط صورة. لكن وجهه مسطّح جامد، وعيناه ميتتان فى الكاميرا.

★★★

فى البدء كانت الحيرة، فتسلّلت رجفة سطح النهار الناعم.

حين وصل العدد الجديد من "بوهيميا"، جلستُ بالأريكة أقلّب صفحاته بسرعة، حتى رأيتُ صورته. فتّشتُ الصحف والمجلات الأجنبية. وكلّما مررتُ على صورته رقدتُ أتطلّع فى وجهه زمناً؛ ثم بحذر أقلع الصفحة. عبر الأسابيع التالية، ظللتُ أفعل هكذا مع الصور الأخرى التى أجدها. أرتّبها فأخزنها برعاية فى علبة داخل خزانتى مع ذكرياتي. صحوتُ ذات ليلة قبل زوجى، فمضيتُ نحو خزانتى وأخرجتُ صورة "بوهيميا". جلستُ مربّعة الساقين فى أرضية حمّامى، النور الوحيد من نصف القمر بالخارج وأنا أتقصّى حدود فمه الداكن.

★★★

أفحص وجهى فى المرآة. امرأة شابة. لكن تقلّبات الزمن تركَت ورائى من زمن إطراء الشباب لأستقرّ فى الأمومة والبيت. لا يزال الرجال ينظرون من زواياهم، يميلون أماماً من مقاعدهم. لكنى أعتبر أحياناً فأرى تخومَ ظلٍّ تحت عينىّ، وأتفهّم ضرورة صنعِ حياتى مهما كانت، مهما وسّعت المباهج يومي، فالزمن يتعذّر نسخه.

وقفتُ كالعادة ذات يوم أمام انكانتو، تهلّ فجأة من البحر ريح لم نعتدها فى ذلك الوقت من العام. أسمعها بدايةً فى الحفيف العالى عبر البنايات وأتخيل البحر هائجاً زَبَداً عن نطاقه. يجلب فى مستهلّه برودة الملح ورائحته. ثم تحتشد الريح عصية فتشقّ طريقها مدوّية بزوايا المدينة وهى تنفث القمامة فى عمق الحوارى الضيقة. من بعيد صفّارات إنذار، بعدها تقذف

الريح المصاريع والعلب المعدنية، فأعى بطيئاً ضوء النهار وهو يتسحّب وراء غيم كئيب. أقف على ركن هامدة، أواجه درباً يُفضى إلى البحر، فيبدأ قلبى الخفقان. حول المتجر الشوارع مهجورة. لا وجه بنافذة، ولا إنسان فى شرفة. كأن المدينة حُذّرت من كارثة، وحدى أقف وسط هذا كلّه لا علم لى بها. حولى تهبّ قمامة، وأوراق شجر جافة. فأجمع أشيائى وأشدّ جونلتى إلى أسفل من الريح، وبينما أجرى فى شوارع خالية، أحسّ حبيبات الرمل تخبط وجهى.

منذ يومين أرقد بالفراش مع حمّى شديدة. يأتى كالستو ليجلس جنبى ويدعك يديّ. يتلبّث عندى ويحمّمنى كلّ صباح، حتى أفتح عينيّ ذات يوم فأرى الشمس فى الغرفة فأعلم أنى شُفيت. أجلس بالفراش وقد راح ثُقل رأسي، أراقبُ سربَ طيور بيضاء تطير أمام النافذة. ووراء الطيور ورقة شجر خضراء، خلفها سماء زرقاء تسرج السحب فى قوس على الدنيا وهى تؤنّبنى بهمس صارم لا نهائيّ على شوقى السرىّ.

★★★

أمرّ بمتجر ذات يوم، فيوقفنى صوتٌ مألوف، يخلط الأرجنتينيّ عادةً بين صوتيات الكلام فتبدو العبارة غير مرتبطة، أو مهدّمة. أقف طويلاً جنب راديو، فأحسّ ثانية بصوت الراديو يحفر نفقاً لى فى النهار، وكلّ شىء مالَ مقترباً.

يهمس فى أذنى: هكذا نضع خططاً دائماً. وحين نتصوّر الميزانية – نقارن ما نحتاج بما نستطيع – نراها صعبة التنفيذ.

ويطول صمتٌ قبل عودة المموّلين.

★★★

أشتعل من جديد تلك الليلة تحت الأغطية. فقد جمّع شخص زمانى ضاغطاً إياه فى همسة. أرى وراء جفنَىّ المحكَمَين مربعاتِ ألوانٍ تميل

فتطوى بعضها الآخر، كلّ منها بمسحة أحمر جديدة. الأفضل أن نتكلّم بوضوح. أحاول تحديد الصوت في أذني فأستيقظ، يغطّيني العرَق. أجد طريقي نحو الفِناء بالعتمة، فأحدّق في وقفتي بحديقتي. في المنزل لمسةٌ أنعم منذ أن راحت بياتريس. خطوطه تُعشي البصر. يشتكي كالستو من غبار على الخزائن. لكني أهوى الأحرف المهترئة، وكلّ ما هو مُزرٍ قليلاً. دُمى المنزل مهجورة بمكانها المعتاد. ليلة معتمة دون أقمار، يبدو أن أحداً شدّ ستاراً منذ برهة أمام عينيّ.

★★★

أروح بعد يومين إلى الجامعة، حيث يلقي محاضرةً. أراقبه من بعيد. أتّخذ طريقي في تمهّل للمقدمة بين حشود أجسام، جلود الرجال والنساء العارية دافئة ملساء أمامي، وأنا أمرّ.

إلى المقدمة. هل يراني؟

يقول: نسيم الحرية هو حقاً نسيم سريّ.

لكن، لا يهمّ: فهو يضيف لمسة مثيرة من الغموض.

★★★

المرأة التي كنتُها يوماً تمشي في ابسبو.

ذهبتُ للتسوّق. انظري، ألبس فستاني الأخضر، بسترة ضافية وأزهار بيضاء كبيرة. شعري داكن يتقلّب في الريح. صفّر رجل؛ طبعاً، اعتدتُ هذا. فأنا ألبس فستاناً وأخلّي شعري منساباً، لكني أتعامى عن الأوجه الملتفتة نحوي. ولا أعرف حقاً حياة أخرى. أظنّ النسوة جميعاً يشعرن هكذا. شقّ الانتباه طريقه فعلاً إلى حسّي بالعالم. عرفتُ الخوف وخيبة الأمل، لكن لم أتصوّر اللامبالاة.

الوقت مبكّر، معظم المدينة نائم. أهوى المشي بالشوارع هادئة، حيث يتلألأ حصى الرصيف بالندى أحياناً وتثور أولى النسائم في دوائر حول

الشمس. أعرف أن هناك مكاناً لي؛ مكان يهجم عليه الطير كلّ صباح، أول شجرة تين بالساحة. مكان يخصّ تريزا ديلندر.

أبدأ السير نحو مرسمي ثم أتردّد. عندئذ يبدأ بائع فستق عبور الشارع؛ ويحمل ولدٌ خمسةَ أرغفة، يحاول تثبيت أعلاها. بالركن، تتكاسل عربة جيب. تهبط نافذتها الخلفية. كان داخلها، ويومئ لي.

★★★

القُبلة. أول افتراق لحميّ. كلّ ما يتأخّر متقَن لذيذ. إن أول قُبلة هي أكثر صراحة من فِراش عارٍ؛ محيطها يشمل أولَ إذعانٍ وآخرَ خيانة.

★★★

كلّما أكتب أتذكّر أكثر، كأن الكلمات الهائمة على الصفحة ريح تنفث غبار السنين.

سهرتُ عدداً من الليالي راقدة في الفراش أتحلّل من تبعة خطاياي، أرتّبُ ذكرياتي لتعيننى فى الخداع. تذكّرتُ تلك الليلة عودتي من زيارة أولاد عمي بمزرعتهم. كان كالستو ينتظرني بمزهرية ورد ويخبرني أنه ضائع من دوني. آخر تلك الليلة وهو نائم، نزلتُ إلى المطبخ لتناول كوب ماء، فلاحظتُ بصورة عائمة أن شخصاً حرّك ألبوم زفافنا حيث نضعه دائماً فوق طاولة الكتابة بالصالة. ووجدته الصباح التالي مخفياً على رفّ واطئ فأعدته. بعد عام، حين عدتُ من رحلة أخرى شرقاً، لاحظتُ بعد حفل، وكنت أرتّب أزهاراً على الطاولة، أن ألبوم الزفاف اختفى من جديد. لم أفكّر في شيء آخر. يصعُب إدراك حياة المرء كما هي. إنها مجرد استعادة لفهم ما عرفه عقلنا من أمد، لا فهماً باطنياً للكون، بل تراكم بطيء لحقيقة أن النفس السهرانة لا قلب لديها كي تتقبّل.

أو أنى أعقد الخيط المفضى إلى مبرّراتى ونحو سقوطي. فى تلك الآونة بدا كالستو ظامئاً منصرفاً، كأنه اكتشف طريقة للعيش بالكلمات وحدها. تحركتُ لتقبيله فأحسستُ به موثقاً، كالمستاء من جوعي. وهكذا بدأتُ أصرف نفسى عنه. أتساءل الآن أن الناس لا يخترعون أسبابهم للخداع وراء الحقيقة. وهو ما يودى بنا حقاً إلى ذراعَى شخص آخر غامضٍ فى فهمنا.

★★★

للبناياتِ التى تواجه البحرَ نوافذُ مؤطّرة. العشب مات من الحرّ، والأزهار مرهقة. هناك لون وحيد من الدهان الأحمر فى بابِ بيت الدعارة، لون باهت يُزرى بأزرق حرف النافذة، ويبدأ لون قرنفل الصباح على "أورينت". الحرّ ينقّط فى كلّ مكان كالمرض، كقوة منظمة تحتلّ أفنية مخفية، تقضى بالنوم والسعى الوئيد. الحرّ فى سويقات الزعفران الذابلة، فى المسافة المرشّشة بين الأرصفة، فى الأوراق الخُضر التى مضت باهتة من المعاناة.

أتصوّر هذا من البداية: جلدى حارّ يلمع بالشمس وأتوق لتقشيرهِ طبقة إثر طبقة. إلى البيت يتبعنى آرنستو حيث يصحو زوجى الآن فيذهب إلى عمله. يراقب كالستو وهو يقبّل جسدى الصامت. أتنبّه فأستدير، وهو منتظر. أنا مادّة خامّ، أحترق؛ أنا فى أوان الحياة حين نحسّ أنها الحقيقة الأصفَى. من دون كلمات، عدا أنه دسّ لسانه كجزيرة مجانين، يفتّش طافياً.

من تلك اللحظة أذكر كلّ شيء. أضمّخ الذكرى وهى تتنفّس. أنسَى كلّ ما عداه، أن آرنستو متزوج حديثاً وكالستو حنون. تعذّبنى أفكار غريبة. أحسّ بمقبض الباب قبل وصول يدى إليه. أسمع نشيج أمّ فى "هلجين". أشمّ القطب الجنوبيّ، ثلج مالح حرّيف. أعرف الشيء قبل حدوثه. فأُغيرُ عليه. أخلّيه يضغط جسمه بجسمى.

أعرفه منذ زمان، وقفتُ معه من سنين أرقب القمر وهو يغيب حتى يطلع ثانية. شفتاه ممتلئتان رطبتان حيث ينمو النخيل وتَردُ الفلاحاتُ لترتوي. بعدها ليلة طويلة، أنجم فى لفيف وصوته يغرّد من فم جدولٍ ضحل.

★★★

نصعد السلّم إلى مرسمى، معاً. كلّ شيء جديد أمامى. ألحظ لأول مرة روائح الطبخ وضجّة الصراخ وراء أبواب مغلقة وحشود الشارع. السلّم الذى نصعده ملتوٍ دائرىّ، ملتوٍ دائرىّ. نسير عبر ممرات ضيقة إلى مدخل يدور من جديد نحو باب وحيد. الغرفة صغيرة داكنة؛ تُشرف نوافذها الثلاث على فِناء مركزىّ؛ إنه مرسمى وكأنى أراه لأول مرة. على الحوائط لوحات لا أعرفها.

أعرَق فى فستانى الزهرىّ. تباغتنى بالغرفة الصغيرة رائحته من جديد: جبال ووَسَخ وجلد لم يستحمّ وحرارة.

أعود للتفكير فى أول ليلة رأيته، حفل بمنزلى ألبس فيه فستانى الحرير الأزرق. ما من حبّ أو لذّة؛ مجرد عطش إليه أموت عليه. وكيف حاولتُ أن أتلطّف وأتهذّب. أجلس وساقاى متقاطعتان. أضحك وأسطع، أبلع رغبتى مرارةً بحلقى. كنتُ أظننى أمسك عالمى متّزناً وطيداً دائماً بين يدىّ. فلا أتعثر.

وهو الآن بالغرفة الصغيرة، فأثبُت على الدفّة أخيراً، أعانقه، برقّة فى البدء ثم أتشبّث به لحظة سقوطى.

★★★

صدره ضيقٌ يخنقه المرض. همساته فى أذنى. وحشية لذيذة لذيذة. يَعرَى الزمان بين أيدينا. أنام وأصحو على فمه. نسيم المعرفة الحارّ. لقد

دخل حياتي ليبقَى، نقّب في رئتيّ عميقاً وكلّ لهفة تُعيدني للنهار: صحراء قاحلة يرسُخ خلودها بأحافيرِ الأرض البعيدة، من دون نهاية أو هدف.

★★★

في ما بعد، أصحو جنبه. ينام وأرقبه: أهدابه تنساب على جلد وجهه الأبيض فأظنّ هذه المرة أن الجمال لن يتحول، من تماثيل المرمر الباردة دائماً على اللّمس إلى منحوتات تستعيد حياتها ليلاً. فمه فمه، منفرج عن أسنانه المستقيمة، بينما تلتفّ شعيرات رفيعة من ذقنه المتمرّد على شفتيه. شفتان متحدّيتان حتى بنومه.

في الخارج، صياح العائدين من أعمالهم. ستائر زرقاء بالنور خلف النافذة. أصوات طلقات أو رعد، ثم يهدأ الجوّ ثانية وأستكين، أسمع طائراً ضائعاً يلحّ على النافذة. لا يزال يرقد، يرقد لا يزال، أنفاسه رخيّة منبسطة تقريباً، من دون لهفة أتعرّف عليها. ذراعاه ملويتان جنبه وتنطوي قبضتاه. أتقصّى صدره العاري حتى تغطس أضلاعه على الجنبين. كدمات صغيرة تبرقش جلد ما فوق معدته كظلال أوراق بأرض وادٍ.

أرقد لصقه، أرقد في سكينة وهدوء جنبه. يحرك في النوم ذراعه لعناقي، ينهض من نومه بين موتَي. ربما يحلم بأخرى تأتيه ليلاً. أريح على كتفه رأسي، وجهي بمنبت صدره. أهمس: لا يهمّ. لا شيء يهمّ. أستنشق رطوبة لحيته الناعمة، وأنصتُ إلى الدم وهو يضخّ بمنشأ رقبته.

★★★

يفتح عينيه يراقبني، متكئاً على كوع واحد.

أتحرك لأُقبله، أُفرِج شفتيه بلساني. يهمهم فيحرك يده تحت عمودي الفقريّ، وأسفل. يشدّني نحو جسمه. أترك نفسي تغرق فيه. يتمتم: حبيبتي؛

وهو يفتّش عنى. يبدأ النور شحوبه من نافذة تمسك انعكاسنا الآن بين ستائرها. فوقه أنا، أراقبه، لم يكن بطلاً أو صورة؛ بل رجل دافئ برائحة مستنقع، جسمه أمامى مبقّع وناعم، جلده لزج على اللمسة من عرَق جافّ. يطرف ببطء. يمسك شعرى بيد واحدة ويشدّه. يشدّه إلى تحت بنعومة، ويده الأخرى بمنخفض ظهرى. يفلتنى ويعانق، يجذبنى علية فهو تحتى حتى أحسّ بقلبه يدقّ على صدرى. يُديرنى إلى جنبى. يلاطف شَعرى ويتمهّل، حركة يده مرآة لحركة جسمه. وببطء أعود إلى نفسى. فأتبع حركاته. يشاهد أحدنا الآخر. تتغيّر أنفاسه. يغلق عينَيه فيسحبنى لصقه، شَرَكٌ كبير فى حَلْقه كنهار يموت فى الليل. وحين يعود إلى الكلام يخرج صوته من عوالمَ شاردةٍ.

★★★

يشحب أحمر السماء عبر المدينة، منحسراً فى ما وراء البنايات. قال، سيعود بعد يومَين. إن أردتُ أن أراه. طبعاً، أريد أن أراه. لا يقبّلنى. يعود فى زيّه الرسميّ، رجل مختلف الآن، يجلس بظهر عربة جيب.

أقول: من أين هذه العربة؟

استعدناها من كابانا.

استعدناها؟

يؤكّد: نعم، استرددناها. وإن أحببتِ قولي: سرقناها. يقول: ننزع ملكية ما نحتاج إليه من الآخرين. ونفضّل أن نعلنها صراحةً حتى لا نتخفّى وراء مفاهيم يُساء تأويلها.

★★★

المنزل معتم تقريباً حين أعود. أغيّر ملابسى وأغتسل بسرعة. أغلق ستائرى، أدع الغرفة معتمة، وأقرّ فى الفِراش. تملكنى فرحة مفاجئة. أجرّد

جسمي، فأكتشف ذكرى سارة وحيدة فى بطن ركبتَيّ وعضلات ذراعَيّ. وليس هناك ما ندعوه جُرماً. ولا ذرّة رمل من دقات قلبى.

يُفتح الباب بالدور السفلىّ فيناديني صوت كالستو. أرقد ساكنة. تريزا! صوته خارج الباب ثم فجأة هناك مع نور المدخل، يقف بوجه غير مألوف. أغلق عينىّ إلى شقّ رفيع ويداى على رأسى. آه، تريزا. يقترب فيأخذ يدىّ. آه آه، أنت دافئة. سخنة للغاية. يده تلمس جبهتى. أقول: متوعّكة. وتَعرونى هذه اللحظة أول هزّة من ندم.

يزيح كالستو الأغطية. يمدّ ذراعيه فيُجلسنى. يرفع قميص نومى من رأسي. عارية أجلس، وعيناى مغمضتان. يُنهضنى زوجى. أحسّ نفسى ترتفع من الفِراش، خفيفة غير متّسقة. يحملنى كالستو إلى الحمّام فيقعدنى على كرسىّ قشّ ويجرى الماء فى البانيو. إنى مندهش، لِمَ عتّمت المنزل كلّه. ارتعبتُ. يتكلّم وظهره إلىّ، يده للخلف والأمام وراء دفق الماء. ظننتُ فجأة أنكِ رحلتِ، أو حدث شىء فظيع. يده على جبهتى من جديد. ثم يرفعنى، ذراعاه تحت ساقىّ العاريتين، يسند ظهرى المتألّم. وينزلنى ببطء إلى الماء.

يجلس ببنطلونه الرمادىّ عند حافة البانيو ويصبّن إسفنجة فيبدأ تحميم زوجته. أُغمض عينىّ وأغطس فى الماء أكثر. الإسفنجة الخشنة على جبهتى، وتنزل على وجهى، تحت رقبتى. ينزّ خرير الماء من الإسفنجة. ينزاح خرير الماء. الإسفنجة عبر صدري، حول كلّ ثدي، وتنزل للماء. ما شعورك؟ أفتح عينيّ. يُسوّد العرَق خطّ شَعر كالستو فيبدو داكناً أشقر. عيناه أشدّ اخضراراً وأكثر لمعاناً مما أذكر. يمدّ يده فيقودنى كى أخرج من البانيو. يلفّنى بمنشفة فيعيدنى للفِراش. أهمس، أنا منتعشة. يغمر جسدى بوصةً بوصةً إرهاقٌ سعيد، يأخذ بتلابيبى إنهاكٌ كامل فجأة. وخلال ثوانٍ أدخل فى نوم أسود عميق.

فى آخر الليل أصحو على رفرفة طيور ناعمة. لا أعرف أين أنا فى البداية، أتصوّر نفسى عدتُ إلى مرسمى البالي، فألتقط أنفاسى. ثم أعود إلى الفِراش تدريجياً حيث أرقد فى غرفتى البيضاء، الستائر ملمومة بالنوافذ فى مجال نور القمر.

★★★

أضع زبداً فى الصباح التالى على خبز كالستو ببطء فأناوله إياه. أرقبه وهو يغمره بقهوته دون أن ينظر، عيناه فى الصحيفة أمامه. يقول: نضب معجون الأسنان، وهو يقوّس حاجبَيه. لا يقول شيئاً أكثر ولا أنا. فالسياسة لا تهمنى.

يضع كالستو صحيفته وينتهى من خبزه. يقبلنى على خدّي. يقول مبتسماً: عرفتُ أننا سنُشفيك. بعد، أجلس إلى الطاولة زمناً. ثم أتناول أشياء الفطور للمطبخ، أغسلها واحداً بعد آخر، يُسعدنى الماء الحارّ ولسعته فتحمرّ يداى عائدة للحياة.

★★★

مرة أخرى أتبيّن الريح واهبة المطر، رائحة الأرض مبتلّة على بُعد أميال. أخبر نفسى، إنه وعى مستجدّ، برهان على أن ما أفعله صواب، فالعالم يبدو جديداً وبوداً الآن ومكانى فيه مطمئن أخيراً.

أخطو نحو ذات جديدة كلّ يوم. أسير فى الشوارع، حيث تهجس الأشجار بالأسرار والأزهار تشتدّ حمرتها وتمتلئ فأتساءل لمَ لا يتّهمها الكهنة فى مواعظهم. وبأيام أخرى تنخفض السحب معلّقة وثقيلة فأُدير وجهى إلى الأرض.

ذات ظهيرة، وسط انهمار الرعد بارقاً إلى كعبيه، أخطو من مرسمى فأبدأ السير وأنا بفستانى ذى الأزهار الخضراء، ينقع الماء نسيجه ثم يجرى

بارداً تحت جلدي. الشوارع خاوية، ومصاريع النوافذ بالمنازل مغلقة. لا أحد يمرّ بي. فأحسّ أنى الناجية الأخيرة من الطوفان.

أخطر فى شارع انكانتو، فأبكى تقريباً من منظر عرائس العرض البلاستيكية التى لن تعرف الحب يوماً.

★★★

أبدأ للزوجين لوحة جديدة. وبهذه اللوحة أيضاً، تمسك المرأة ذراع الرجل، ومع أنها تبتسم ففى أصابعها الملوية شىء آخر. بينما لا تزال عينا الرجل تمنحاننى توتراً. مرات ومرات رسمتهما. رسمتهما مرة عينَين كئيبتَين ومرة مدوّرتَين بذكرى سعيدة.

يقف الزوجان وسط اللوحة: دون شاطئ، دون نخيل، دون فندق. ولا يكتمل لهما جسم. يتصور القادم للوحة أن الرجل والمرأة يتمهّلان فجأة للخروج من عدم أبيض. لكنى لا أراهما هكذا. فهما لا يخرجان من اللوحة بل منى أنا، كأن أصابعى تنزف وراء السطح.

سميتُهما: مينا وسامي. قد لا يكون الاسمان أمريكيين. ربما سمعتُ بهما فى الراديو. لكنهما عندى مينا وسامي. أحسّ أنى اخترعتُ الاسمين، حتى لو كانا منسوخين. وجه مينا أقلّ استدارة، أقلّ شبهاً بوجه أمّي؛ لكنى أتصوّرها ابنتى. أما سامى فهو نفسه، بل شخص آخر، شخص يعيش داخلي.

★★★

أسمعه جنبى دائماً، يبكى عزلته الشخصية التى تتحدّى ذاته المضطَهدَة عبر الفن. وأنتِ يا حبيبتى تريزا، تتفاعلين مع كلّ شىء كمحارب أعزل؛ إلهامكِ الوحيد ألا يلطّخكِ شىء. فمن أىّ شىء تحاولين تحريرَ نفسكِ؟

★★★

لا يلبس زيّه هذا اليوم. يلبس بنطلوناً أسود وقميصاً أبيض، كما يُفترض بمصرفيّ. عيناه متعبتان. يفتح نافذة فى الغرفة. عبر الطريق، امرأة

تميل من شباكها وهى تتطلّع إلى غرفتنا. يقول آرنستو: لا تقلقى، فهى عمياء.

أضحك. ينضو عنى ثيابي، وأنا أبتسم. أفكّ أزرار قميصه. على جلدى يداه، أنفاسه، رائحته. أجراس الكاتدرائية. تغريد طائر وحيد. ومن دون إنذار، يغمرنى حزن هائل. يراه فيسكُن. يجلسنى بنعومة.

يقول: الحبّ يتضمّن الفراق، اليقين بأن كلّ شيء ينتهى. يقول: حين أرقد جنبك نائمة، أتطلّع إلى جفنَيك المرفرفَين وطرف شَعرك على شفتك، فأدركُ أنه لا دوام لشيء، وتفتح هذه الحالُ شهيةَ الحب. لا شيء يجعل الحياة أعذب من معرفة الساعة لحظة مرورها. ويقبّلنى.

يعود للرقاد. آتيه فأُسقط شَعرى على وجهه وهو يرانى.

★★★

بعد النوم أنهض وحدى. أعثر بملابسى فألبسها على مهل. أقف عند النافذة. السماء تغيم من الصبح والضوء منساب إلى الفناء الموحل الآن. المدينة ساكنة فيمكننى سماع هدير البحر وإن لحظة بأعالى السطوح.

كنتُ أظنّ وأنا فتاة أن القطارات تهدر ليلاً فقط. ثم أدركتُ أن عويل القطار كنور النجوم: حاضر نهاراً، لكنه يبزّ الآن أكثر الأشياء بهاءً.

حين أدور أرى آرنستو على حافة الأريكة، ساقاه ممدودتان، وينظر إلىّ. مِمّ تخافين؟

فأنظر إليه. لم أعتبره سؤالاً. وأنا طفلة كنتُ أخشى الليالى السوداء وأشباح الجدران. ثم تفاقم الأمر. تواصل خوفى حتى بعد أن تخليتُ عن إيمانى بالأشباح. أفتح عينيّ وأنظر إلى الرجل أمامى، لحيته قريبة المنال وها هو شَعره الخشن الذى مسّ عُريى من لحظات. أخشى رحيله، من الفراغ المعتم الذى سيخلّيه بعد أن يتلاشى من حياتي.

من الموت، أقول.

يمرّ ظلّ بعينَيْ آرنستو. خيبة أمل. ثم يبتسم: آه، نعم. لم أفكر فى هذا الردّ. لكن الموت عندى شيء أكثر من الندم، فلا خوف منه. الخوف أحد الأشياء التى تجعل لحياتنا معنى. وكيف نخاف من القَدَر؟ كأننا نخاف من الفجر.

أومئ. وبعد وهلة أقول: ثم افترض أنى أخاف من الفجر.

فيقبّلني، وحين أفتح عينَيّ أبتسم، ليعرفَ أنى أمزح معه.

★★★

حين أراه المرة التالية يكون اليوم الأشدّ عتمة فى السنة، رمادياً مستحكماً خانقاً. آرنستو جدّ متعب. رقدتُ معه من أيام وفكّرتُ أن الحقيقة قد تُختبر، كشيء يقف بالحلق. والآن الظلال؛ الزوايا مخفية؛ وقلبه بعيد عن المتناول. لا أتصوّر زوجته وأنا أتصوّر رحيله. حلمه العاشق يمسك بتلابيب كلّ منا؛ رغبته الأولى أن يحفر الأخاديد بالأرض، يستكشف الجبال والغابات حتى يجد موتاً جميلاً يرتقبه مخلّصاً.

★★★

ننزل معاً للشارع. أتبعه بالحوارى الضيقة. فوقنا صلصلة الأوانى والملاعق المعدنية، وصراخ الأطفال. تسعى السماء لأن تشرق من حافتَيها. أقول: لنهرب من المطر. فندور إلى شارع قصير نعبر منه إلى الحارة التالية. أتبعه ويتّجه يساراً فنمضى برهة ثم يميناً. دورة أخرى وأضيع فعلاً.

جعلنى حرّ الظهيرة متوعّكة. أميل على جدار بناية غير مظلىّ لتمسّ خشونته جلدى. يروح أماماً، ثم يعود عندي. يواجهنى فيضغط جسمه بجسمي، لعوباً فى البداية حتى يتغير ما بعينيه. يهمس لى، ونَفَسه حارّ فى أذني. يداه على كتفَيّ، ويضغطنى إليه.

يهلّ علينا سريعاً، من دون تحذير، هرير كلاب. فألتصق بالجدار. يغطّينى جسمه. ثلاثة كلاب صفر قبيحة بفراء ملبّد وجلد رماديّ يظهر من

بقع فى صوفها. وعلينا تزمجر فتبين عن أسنان وامضة بيضاء. يخفق قلبى على ظهره. يندفع آرنستو نحو الكلاب، تخطو للوراء قليلاً ثم تعدو علينا من جديد. يقول: هيا هيا. تنفتح النوافذ فى أول الحارة وآخرها. تميل امرأة. يخفض آرنستو وجهه. يرتدّ إلى الأرض ثم يندفع مرة أخرى نحو الكلاب. ويدوم هذا زمناً. أعرَق، فلا أدركُ إن كنتُ أصرخ أو أفكّر فى الصراخ. أتنفّس الغبار الذى أثاره آرنستو. وأنا ألتصق بالجدار. يتناول حجراً فيرمى الكلاب به، ويُصاب أحدها فى ساقه. ثم حجر آخر إلى فمه.

يقول بعدها: أصبتُه. حاولتُ أن أحميك.

★★★

بعد أيام يقول: كنا نعيش وأنا ولد فى قرطبة قرب حيّ بائس بمنازل كرتون. وبين المهاجرين اليائسين من ضواحى الريف رجل دون ساق، يُدعى أبو الكلاب. يركب عربة تجرّها حزمة كلاب بريّة تقاسى مثله. ويعلن هرير الكلاب فى كلّ صياح عن يقظته، وكان يضربها ويسبّها كى تسرع حركتها.

ويوضّح: كان أبو الكلاب تسلية البلدة، ويشبه كثيراً المجنون كباليرو دا لا هابانا. على عربته كلّ صباح، يبصق العاجز ويهيج ويضرب الكلاب بكلّ ما فى حياته من غضب. وكانت تنبح كلّ صباح، منهكة تحت وقع السياط. ومرة ذات صباح بدأ الأولاد طراد الرجل. فيلقون عليه الحجارة والزجاجات صارخين: قُم يا مجنوم، سِرْ! توسلّتُ للأولاد فوجّهوا نحوى سُبابهم. جريتُ ما بين الأولاد وأبى الكلاب. أصرخ فيهم: قفوا! خلّوا فى قلوبكم رحمة!

يقول آرنستو: تعرفين ما حدث؟ تطلّع الرجل من عربته، وكانت عيناه الميتتان مفعمتين بمقتٍ لى...

أقول: اسمع، وسط الظهيرة تغريد طائر. يدير وجهه. تنفّسه بطيء. أخبره عن ليالى الصيف بمزرعة كردنيس. تَسوَدُّ السماء بالطيور طلباً

للعشّ. واعتدتُ صعود شجرة المانجو لِلَعق العسل الدافئ من نخرها بينما الأرض ورائى تُعشب فيها الظلال.

★★★

سألنى آرنستو مرة فى ظهيرة صيف حارّ، وكنا نرقد متباعدين على المرتبة لا نتلامس، لمَ لا أتكلّم عن زوجى.

أقول: أحترم كلاً منكما. ولأنه ينتظرنى أن أواصل، أقول: ولِمَ لا تتكلّم عن زوجتك.

ماذا تريدين معرفته؟

كما أخبرتنى - لا شىء مطلقاً.

آرنستو هادئ. راقدة بالظلام، أظنّ أنى لا أفكّر فى شيء، لكن أفهم بعد وهلة أن ما يتشكّل داخل العماء هو صورتها. فلم أصادفها، مع ذلك رأيت صورتها وسمعتكَ تقول إنها جميلة جداً. أفكّر فى أشياء أخرى، لكن عقلى يتمهّل هنا معها. أغمض عينيّ فأتطابق أنا وهى. تصحو عند وصول زوجها متأخراً. تتردّد دقيقة ثم تتخيّل أنها ترى شيئاً بمشيته. يجرفها ما بين ذراعيه وهو يمتدحها بأشياء جميلة، كامرأة جميلة.

يقبّلها بالطريقة نفسها؟ تندهش مثلى حين تجلس بإنصات إلى الماء جارياً فى الحمّام، كيف يقسّم قلبه بالتساوي؟

بعد صمت طال أقول: أدرى أنك تحبها كثيراً.

يضايقك هذا؟

بالعكس. أحبّ أنك تحبّ، وأظنّ الأفضل بالنسبة لكَ أن تفعل الحبّ. فلدينا فكرة خاطئة عن الحبّ.

يقول: وما خطؤها؟

أن يكون باتجاهٍ واحد.

هو هادئ. أنور إليه فيزمّ شفتَيه.

يقول: آه، لم يُكتب بأيّ مكان لرجل وامرأة أن يظلّ أحدهما للآخر فقط. مع ذلك...

يميل على كوعه. يقول: هذه طريقة خطرة فى التفكير. ويشدّنى إليه. لو أحبّ المرء متى شاء وأين شاء، فلن يكون إلا وهماً. وهل يمكن حجب أىّ فكرة بديعة عن امرئ وهى تخطر بباله، بينما يجلس فى مقهىً وذهنه متوقّد؟

يقول: لا، ويداه تمسّان جلدى. لا يهمّ كم نحاول، فنحن نحبّ أشياء أكثر من أخرى. وبعض ما نحبه أكثر نُبجّله إلى الموت.

★★★

وحدى بعد سنوات، فى مرسمي، أسمع وقع أقدام خارج الباب. أتنبّه، فأقف بهدوء جنب النافذة. طرقٌ خشن على الباب ومتعجّل، والتعتُ قليلاً بتذكّر دخوله الناعم، حيث تَعشَى اللهفةُ بوصوله.

نطق رجل لا أعرفه باسمى السريّ، الاسم الذى يعرفه وحْده. سلّمنى رسالة. بعد رحيله، أمسك المظروف بين يدىّ طويلاً. وددتُ لو أنتظر فلم أقدر، ومزّقتُ المغلّف ببطء:

معبودتى، خارج لقتالى.
سأحفرُ الأرضَ لكِ كهفاً
لينتظرك هناك
سيدكِ بالأزهارِ فى فِراشه.

★★★

حملتُ رسالته معى شهوراً، وكلما فتحتها أحسستُ بالألم فى صدرى من جديد. كان آرنستو يحمينى بيدَيه، لمستُه كالغمر فى حوض صغير، لمسة

عميقة باردة ولذيذة تحت الانعكاس.

تعيش بقلبى قبلاتك

كألوية حمراء.

★★★

لم أكفّ عن حبّ زوجى. فلم أحدّثه مطلقاً عن آرنستو ـ كما لم أحدّثك ـ إلا نادراً. نسعى دائماً لنرى ما وراء خطّ قبضتنا الغائم؛ نجاهد لنعرف معنى ما يُقال وما لا يُقال. نظنّ كقراء حصيفين أن الحقيقة سهلة المنال كما تنمّ عنها الأسطر. كالستو رجل طيب. ولا سبب يُفضى بى إلى آخر. لكن هكذا كان. المنطق الوحيد الذى أعرفه. قد تعلّل امرأة أخرى أن كالستو بدأ الترحال؛ كان يذهب شهوراً إلى موسكو وبودابست. وكان فى مدريد ليلة ولادتك. والأكثر فداحة من السبب والنتيجة أنه لا نفع فى قلب يدقّ ارتقاباً للقاء غير متخيَّل. أفهم الآن أن آرنستو، وقبل أن أعرفه بسنين، قد صار فعلياً يقظتى ومنامى، كلّ أفكارى؛ ولم يغب لحظة عن خيالى، منذ أن كنتُ أنصتُ إلى الخلاسيّ على البيانو ليلاً، حتى هذه اللحظة التى أجلس فيها إلى مكتب بالٍ لأسطّر رسالة طائشة إلى ابنتي. ذات يوم، أظنّه قريباً، ستنتبهين صباحاً فلا تعزفين إن كنت فتّحت عينيك أم بدأت حلمك. قد تسألين، كما أسأل، إن كان بمقدورك فصل هذا العالم عن الآخر المكتوب على جُنح الملائكة.

★★★

آخر مرة رأيت فيها آرنستو، كان يلبس زيّ شخص آخر. يقف جنب شجرة التين العجوز بالميدان، مستقيماً. يتطلّع للبعيد ورأسه مرفوع طفيفاً. رجل أعمال متعجرف من عصر سابق. حوله يروح الناس ويجيئون، لا يراه أحد. لكنى عرفته من ميلان شفته التحتية الممتلئة، وتقطيب جبهته على عينَيه. ليس لكِ أن تخطئى عاشقاً؛ فالعاشق يترسّم كلّ خطّ محيط، ويعرف

كل ممرّ خفيّ. وليس للمرء أن يُخفي نفسه عن حبيب أكثر مما لو تخفّى عن وجهه.

يدور نحوى فأمضى إليه على مهل. رائحته مألوفة وراء قميصه الأبيض، بجسمه هو. أخذ يدى فحضنها إلى صدره. وهو ما جعله يقول الوداع من جديد، صوته صغير بين فوضى الميدان، صوت صغير على الرجل الذى كان. نَفَسه متقطّع حارّ. أخبرنى إنها آخر مرة، فما كان إلا أن أومأتُ. قلتُ وداعاً، وأنا أعهد به للأرض، للعشب الفسيح، للسماء المقوّسة التى نتشارك تحتها. فما من نهائيّ بوداع الحبّ.

لكن الموت. وداعاً. صمت. وتلك نهاية مختلفة.

★★★

لكلٍّ لهفته بعد موتٍ جميل، لكلٍّ كلامه الذى جهلناه بأيّ أرض تضمّ عظامه، يتماسك باللحظات الأخيرة فى نسيم الوادى العليل. قال مرة: الخوف أحد الخبرات القليلة التى تجعل لحياتك معنى. عبارة رائعة لجوقة الشباب الملتمّين. وماذا عن الساعة الأخيرة؟ خرج من الخندق، فى تردّد. شَعره ملبّد. جوعان. دون دوائه، ترتدّ عليه أنفاسه انبثاقاً حاراً، ويستسلم أمامه بدنه. لكن فى تردّد. لا تزال بِدَع الحياة تتشبّث به؛ طائر يمرّ فوق رأسه، السماء وغيومها، ميلان الوادى والشجر المثبّت بخاصرة التلال، آه، حتى الحيوانات التى تمزّق بعضها بعضاً تحت أغصان، نزيف عنيف: أتراحٌ وأفراح. كلّه هذه الليلة، يمضى الراديو، الأخبار نفسها مرات، ولا عزاء بالنشرة، ويصبح الإعلان أشدّ ضجراً بالصباح الباكر. أجلس ولا أزال أجلس. فى الظهيرة التالية وما بعدها، الأخبار نفسها.

آه يا قائدى وحبيبى آرنستو. أين فِراش الأزهار؟ أين الألويةُ الحمراء؟ قضَى بصمت، لن يذوق الصباح الرائع، أبداً. قضَى فى مقبرة الذكرى. تحت وتحت، تحت ممرّ القدّيسين الأبكم.

★★★

آه، كم بدت السماء فى البداية واسعةً والأفق دون نهاية، حيث فكّرنا أن نُريح أعيننا ذات موسم.

★★★

فى البداية...

الجمعة رائعة. اللوعة تجتاح الحيّ الصينيّ، ويصطفّ الشعب بالشوارع ليشاهد، تلقى النسوة الورعات أنفسهن على موكبه؛ المسيح الملك، المسيح المخلّص. يتحرك الحشد تحت النافذة كالكلّ فى واحد. وتعلن أجراس الكاتدرائية موت الظهيرة.

كنتُ بمرسمى، يداى ملطّختان أزرق بأخضر. لوحة شاطئ ميامى ترتاح على حائط، والرجل لا يزال غير منظور، بينما أصابع المرأة تضغط لحم ذراعه. قلتُ ريثما أسعى لملء اللوحة: قرأتُ ما كتبتَه عن الفن، وأتبين منه أنك لست فناناً. فضحكَ بدلاً من توبيخي: ولا اقتصادياً، أيضاً.

ابتسمتُ. ثم واصلتُ: ليس الفن ما تقوله الآن بجدّية. فهو لا يخدم هذا أو ذاك. الفن غير منطوق، ذات صُنعَت من صلصال. صرتُ أتكلّم على هذا برهة، بجاذبية لم أعد أملكها، وهو واقفٌ ينصت، مراقبٌ ينصت. قلتُ: ليس الفن جواباً أو إنصاتاً. الفنّ لا يعنيكَ؛ لا يريحكَ، وليس مسؤولاً عن أحد؛ كينونته فى الرغبة كلّها، الاشتهاء كلّه.

إلىّ جاء آرنستو. سأل: هل ترسمين إذنِ من دون وعد أن يرى أحدٌ ما رسمتِ؟

فكرتُ لحظة. ثم قلتُ أخيراً: نعم. أرسم لوجهِ اللوحة.

يراقبني ويضحك. قال: لا، لا أظنك هكذا. فلن تكوني أكثر ممن يعمل لوجه العماء. لن توجَد لوحتك حتى يراها أحدهم. كطعم البرتقالة الذى لا يرسب فى البرتقالة أو فى اللسان بل بالجمع بينهما.

مسح الدهان عن يدَيّ مهتاجاً، ببطء ورعاية. وبعدما فعل، رفع يدَيّ دافئة حمراء من فَرك القماش إلى شفتَيه. باسَ يدَيّ، من ثم شدّنى إلى صدره.

★★★

بعد هذه السنين، أذكر كلّ شيء بدقة غير طبيعية، بثقة لا توهَب لحياة فعلية.

ظلّ يدعك يدَيّ حتى احمرّتا نظيفتَين من ثمّ شدّنى إليه يحضننى بصمت طال. ظلّ يقبّلنى ملتصقَين، ويفتح عوالم جديدة بلسانه. العيون مغمضة، فأسافر فى نفق أخضر نحو ريف مفتوح. الستائر مسدلة والهواء حارّ رطب. يقبلنى ويده تنسلّ ما تحت ظهرى.

يهمس: يبدو الحبّ أحياناً مألوفاً وجديداً. يعرّينى على مهل فيُجلسنى على كرسىّ. يركع مانحاً فمه عندي، يصول لسانه ويجول، بليونة حتى لأستطعم ريقاً جديداً. وحين يَدخُلنى أخيراً لا أفكّر فى شيء، لا النجوم ولا الأزهار اليانعة أو حتى الشمس التى تضرب بسياطها الأرض ونحن نمارس الغرام.

لم أر من قبل ولا منذ أن التحمت أفكارى بأحاسيس جسمي؛ أن الماضى والمستقبل مكتوبان على دُخان. تولّد عندى فقط حزن هائل على عالم مستقرّ داخل إطاره.

★★★

نرقد معاً فننام إلى العصر. أصحو على أنفاسه. ظهرى إليه ويحضننى فى منامه. ثم أدركُ بعد فترة من تغيّر أنفاسه أنه صحا. لا نتكلّم. لا حسّ

إلا بيديه؛ على جسمي، فوق كتفَيّ، رقبتي، على ثديَيّ، حول شفتَيّ. يحسّ أسفله بدفئي فيدخُلني وأقوّس ظهري إليه، أغمضُ عينيّ على احتكاكٍ يشقّ آلافَ الصدوع الصغيرة داخلي. أفهم عندئذ كيف تدمّر امرأة حياتها لوجه الحبّ، فتنبذ الأهل والطموح، تُلقي روحها في موضع الخطر، لمجرّد لمحة من خلود تخدعنا بها الحياة.

★★★

يرتجف فينتبه على نوم شحيح.

يقول: كنتُ أكلّم ملاكة. ملاكة هائلة بإزار ذهبيّ. أعرفها من شعرها المنسدل على كتفيها وهذه الانحناءة. ثم يُجرى إصبعه فوق عظمة حُرقُفتي. وتزعم الملاكة أنه لكي يُغفَر لي، عليّ أن أقبّل كلّ شامة في جسمك.

ويبدأ عند أذني. فأضحك ناعسة. يُدغدغني. وتسعى قبلُته على جلدي كالماء. فأنفتح كالمستسلمة. وتغلبُ القوةُ أنفاسي. كلّ شيء يتهاوَى، وتنحرف السماء عن الشمس.

أقول: قد غُفِر لكَ.

حتى الخطايا القادمة؟

حتى الخطايا القادمة.

ثم يرقد وعيناه مغمضتان.

يقول: في بيرو، الجبال شديدة البرد، حتى صيفاً. لكن الهنود يسيرون هنا وهناك من دون أحذية، أقدامهم محبّبة بيضاء وسميكة كالأحذية. يبدون من بعيد كقطيع كبير من جِمال اللاما، بحركتهم الوئيدة بين سلاسل الجبال.

وحين يصل الهنود أعلى جبل، يضعون أحزانهم فوق حجر يدحرجونه نحو أمّهم الأرض. تتراكم الأحزان حتى تشكّل هرماً ضخماً. وقد حاول

الإسبان نبذ هذه الخرافة، ومع أنهم بذلوا ما في وسعهم إلا أن الأحزان ظلّت تتراكم.

أهمس: ثم؟

فيقول: وطّد الكهنة أنفسَهم مع القَدَر. وبمضاء الزمن، نهضت أهرامٌ حجرية صغيرة في الهواء الضنين عبر أعالي جبال بيرو، وتميّزت كلّ كومة أحزان بصليب مسيحيّ صغير.

★★★

أجلس على مقعد بالساحة. يرقبني بائع فستق. وأنتظر. بعد ساعة طويلة، يسير نحوي وأتطلّع بعيداً. فستق، يا سيدتي؟ بالصوت شيء مألوف. أدور إليه فآخذ عملة من محفظتي. يحني بائع الفستق قبعته وهو يُسلّمني مخروطاً ورقياً أبيض من الفستق. شكراً. يردّ: العفو، لكنه لا يغادر. نعم؟ يقول: مَن تنتظرين كان هنا صباحاً. أقف غاضبة. أنت مخطئ في شخص آخر سيدي، فأنا لا أنتظر أحداً.

كما تحبين، سيدتي.

لا يأتي آرنستو اليوم التالي للمرسم. ولا بعده. يظلّ بائع الفستق يراقبني وأنا أعبر الشارع نحو بنايتي. أتّخذ دربياً مختلفاً. أذكر كلماته: الحبّ يتضمّن الفراق. أرسم وأعيد الرسم، أضع طبقات من اللون حتى أعرف أخيراً ما الحكاية. لو تمّت اللوحة فسيحسّ مَن ينظر إليها أن فيها سراً.

تمرّ أسابيع، أو سنوات. وأعمل ذات صباح، فأسمع بالباب ثلاث دقّات صارمة. صوت أجشّ: شرطة عسكرية. افتحي فوراً! تنقطع أنفاسي لحظة. أفتح الباب فأرى آرنستو واقفاً يضحك. يخفق قلبي من الخوف، ثم من

الشوق والراحة. أوحَشتني كثيراً. يهمس: شرطة عسكرية. أغلق الباب. يقول: أرعبتك؟ فيقبّل شفتَيّ وخدَيّ ثم يطحن شفتَيه في الفراغ الناعم ما بين رقبتي وأذني. قُولي كيف أرعبتك.

★★★

عاصفة تضرب المدينة. أُغلق النافذة، من ثم الستائر. أتلمّس طريقي إلى المرتبة باللمس. أنفاسه الصوت الوحيد. أدنو منه لأجد قميصه فأفكّ أزراره. أتبع طول ساقه إلى قدميه فأنزع عنه حذاءه، وجوربه.

أقول: نعم، أرعبتَني.

رائع.

أفكّ حزامه وأزرار بنطلونه، أشدّه لأسفل مع لباسه. وتفزع يداي عائدةً لأعلى عبر شَعر ساقيه، أسكن حيث تلتقيان، فأميل عليه لأستنشق رائحته، رائحته عندي الآن تعني شيئاً آخر، شيئاً مفعماً بأسرارنا معاً. ألقُمه بفمي، نبضة رغبته كالكلام على لساني. وهكذا يكلّمني. أُنصت إلى أنفاسه وأنتظر، ألاطفه وأنتظر، لا أنوي شيئاً ولا أريد شيئاً.

فيما بعد أرقد جنبه في ظلام الظهيرة، أُنصت إلى العاصفة، فتجري نقاط ثقيلة من الميازيب على الفناء متناثرة تحت نافذتي المغلقة. يغلق صوت الماء جفنَيّ فأنام. حين أصحو أجده عند النافذة. يفرج الستارة فيسقط عن رأسه ضوء واهن.

إليّ يأتي. يقول: أعرفك حين أراك. أعرف ثدييك، فخذَيك. أعرفك كلك. فلا أخاف فقدانك حيث ذُقتُ جسمك فعلاً.

أغمضُ عينَيّ وهو يدخلني، أغمضُ عينَيّ دائماً مع أني أحاول فتحهما. أغمضُ عينيّ فأراه فقط. وطؤه إياي كلّ مرة كالمرّة الأولى، يُفتح بابٌ على ريفٍ مستجدّ، وقع أقدام؛ تدنو أم تغيب؟ عليّ أن أركّز. يمضي العالم الآن؛

أخشى الصراخ عليه فقد أُبلغه كلّ شيء: كم أرغبه، كم أحبّ الهرب منه، كم أحبّ امتلاكه للأبد. مطر كصفحات طويلة، كرنين أجراس الكاتدرائية. أفتح عينيّ أخيراً فأراه ساهماً، عيناه حمراوان محرّقتان، إجهاد بفجوات وجهه، كظلال جمجمة تنبثق من الجلد.

★★★

عشق جيفارا كزَبد بحرٍ على لوحة، كريح بين النجوم.

عشق جيفارا مخلّص قاتل وحشيّ لإبداعي. في العتمة، عقد العاج على صدره بفمي. بعد الظهر نقضي وقتنا المباح كالقبضة أو نُفشي ستائر أعيننا.

★★★

أتطلّع من النافذة على الفناء. امرأة عبر الطريق تكوي قمصاناً بيضاء وهي تجلس إلى طاولة مطبخها. تأخذ القمصان من النشا واحداً واحداً فتطويها أمامها. تقوم يدها بتليين النسيج كالملاطفة. تكلّم نفسها أو تغني. أميل أقرب، لكن شفتَيها من دون صوت. تحرك المكواة بطيئاً، وتتوقّف أحياناً لإنكاء الفحم بنخسة صغيرة.

أعود إلى عملي فأجد آرنستو واقفاً إلى الحائط. دخل بهدوء ويقف الآن يرقبني، ذراعاه مطويتان على صدره كجناحين. يقول: اخلعي العقد، دون أن يقسو أو يبتسم. أتردّد. لماذا؟ أطلبه منكِ. أقف لحظة. هل الباب مغلَق؟ يومئ. أخلعُ العقد. يقول: والبلوزة. أرفع نقني إليه. لم يكن هكذا. كان ينضو عني ملابسي بطيئاً وهو يمشّطني، فلا أعي مطلقاً أني عريتُ. أرجوكِ.

فأفعل ما أُمِرتُ. أفكّ أزرار البلوزة. أردّ بصرى إليه فلا يتكلّم. أستلّ البلوزة من كتفيّ. يقول: والجونلة. جونلتى مدبّسة بشرائط ابتعتها من انكانتو قبل زمان طويل. أفك سَحّابها. يقول: واللّباس. أسحبه مّع الجونلة. بقميص نومى الآن. الجو حارّ لكن العرَق على جلدى يُصيبنى برجفة. لا يتحرك. يرقب. يومئ. أهزّ رأسى: لا. فيشير، اخلعي.

أخلع حمّالة ثديَيّ، ألبسها طول النهار لأجله. ولا أُبدى ارتباكاً، فأُنزل المشدّ. أكوّره بينما أسير، ويفتح نزع هذه الطية الأخيرة عن جلدى وعياً جديداً. أقف عارية الثديين مفتوحةً أمام غريب، كصنم امرأة، كصخرة نُحتَت من جبال أسفاره.

ولا يفعل شيئاً، يرنو فحسب. يرنو طويلاً. يتمهّل نحوي. دون أن يلمسنى مال ليلتقط حمّالة صدرى ويعيننى فى لبسها. يرفع ساقَيّ واحدةً بعد أخرى، ويُحكم ربط المشدّ لأعلى. يربّت على جلدى متمهّلاً عند خصري. ثم البلوزة؛ يزرّها ثَقباً ثَقبا. يدسّنى فى لباسي. ويمسك جونلتى مفتوحة لأخطو فيها، ويدى على كتِفه للتوازن.

★★★

بعد ساعاتٍ من رحيله، أعمل فلا أعى يدَيّ تقريباً، الفحم يبقّع أصابعى كالدخان. أخطّ وجهه خفيفاً فى البداية، كما أستعيده بالذاكرة، غامضاً ملتحماً بالخطوط الدنيا. أحفر عمقَ الورقة، أُعتِم الظلال وأحكّ قليلاً حيث تبرز جبهته. وأنا أصغر، كانت الحقيقة مسطّحة فارغة دون أبعاد عديمة الوزن؛ والورقة البيضاء أوفى لضربات الأخضر الزائفة، شفرة العشب أكثر مضاء من جهلها بالفضاء أو استخفافها الرتيب بالخلود.

لكنى أعلم الآن أن هذا كلّه حقيقىّ: أتمثّل ملامحه من الغبار، أُسَوّد الورقةَ بالرماد، فيكلّمنى من جديد وإن بلغة الصمّ والبكم. أشكّل شفتَيه الصموتتَين بذاكرتى فأفهم لِمَ منحته نصفَ وجه وشتّتُ نصفَ ملامحه فى العالم الواسع. يبقى مما أملك الكثير: خصلة شَعر، عين مسدلة بالنوم والحزن، عين تضيق بفرحة خاصة.

★★★

أعود للجلوس متعبة قليلاً لكن مفعمة بالشوق، قلبى خافق كما كان. أسكن برهة على حركة صدرى ناهضاً هامداً. ثم آخذ الفحم فى يدى، أضغطه بلحم راحتى. تسوَدّ يدى فأحرك الفحم حول رسغيّ وأعلى باطن ذراعي، أحصرُ نفسى فى ظلّ باهت. كما كنتُ أيامها أتتبّع قلماً على ورقةٍ لساعات. آخذ الفحم إلى إبطيّ، فيرجف جلدى بأثر منه. أغمضُ عينَىّ، لا شيء عدا غبار فحم ناعم يطوف كالرماد. يد العناية تطلى جلدى، تتقَصّى منابعَ أنهارٍ بخارطة قديمة. أشرد عن نفسى، ولا يربطنى بجسمى غير خيط أغبر، وحكاية تشكّلها أطرافُ أصابعى.

★★★

يا فلذةَ كَبدى: عليك تذكّر أن سيرنا خطوة نحو الآخر. ندخل غرفاً ولوحات، نتطلّع فى عينَى بعضنا البعض، نفتح طروداً، نسافر إلى بلاد أخرى. نضحك، نتنوق بأفواهنا النهمة، وتموت أيدينا على اللّمسة والحِضن.

هكذا حالى مع آرنستو، حين فتحنا باب غرفة صغيرة فى أعلى السلّم لنستهلّ حياة مختلفة. ذهابى مرة ومرة إليه، رغبتى أن أضيع فى جسمه، وظنى أن المرة الأخيرة قادمة. أحسّ به فى يدَىّ كمن يتلمّس ذاته فى ظهيرة مفتقَدة. كشْف، وغزو. حِضن الحبيب، حياة ضمنَ صمتِ الآخر.

آه يا طفلتى، لقد حبستُ الأسرارَ من زمنٍ بإحكام. لكنى أرقد الآن فى آخر ممرّ طويل لن تستطيعى الوصول إليه. أتمنى عودتكِ وليدة من جديد تمصّين ثديَيّ، تتشبّثين فيهما بيديكِ المنمنمتَين. قد تطوين الزمان فترْجعين إليّ على هَدى الزوايا المعتمة بذاكرتك، تعودين حيث بدأتِ.

★★★

أرتّب ورودى صباحاً، فيردّنى نبرُ انفجارٍ برعمٍ. أقعد ورأسى فى يدَيّ. يصيح بى ضِفدع كبير من العشب، وفى الشجرة العجوز طائر يتنبّه، صدى خطوة عملاقة، من وقع أطرافٍ خنفسة. تحت قدميّ يهتاج نملٌ على الأرض، وصوت الأرض المتخبّط بالأرض يمحو فجأة كلّ صوت آخر فى العَالم.

صورة الرجل والمرأة بمرسمى حيث هى منذ شهور. أدرى أنها لن تنتهى. أرى الغد يرتقبنى، برهةً كومضٍ بارق. أدرى أنى سألد بنتاً وأرسلها لبعيد. أدرى أنى سأنتظر حبيبى أن يعود دون جدوى، سأنتظره حتى بعد وفاته. حياتى كلّها محض انتظار، انتظار رائق مؤمّل، وتمتدّ أيام وسنوات فلا تعود أكثر من لحظة تقطعها سحابةٌ فى عبور الليل.

★★★

كنتُ بمرسمى يوم احتراق انكانتو. أسمع الانفجار فأركض إلى الشارع. الحشود فوراً، تجرى أمامى وترتطم بي. صوت عربات إطفاء. صراخ. أهرول. عند جوليانو أقف. انكانتو يحترق فادحاً، رماد دخان ورائحة بلاستيك. يستمرّ تحطّم صوت الزجاج أعلى وتحت وأمام البناية، بب بب بب، ويلتهم الحريقُ كلّ شيء: فساتين باريس، جواهر ثمينة، أجهزة راديو صغيرة، علب عرض زجاجية، أعمدة بيضاء وواجهات. واجهات بعرائس العرض الباهتة. أقترب حتى أحسّ حرارة فى وجهي. السعير يلتهم عرائس العرض، يزحف على أطرافها الصلبة كالهدهدة، يُشعل شَعرها وهى

واقفة من دون إحساس، الوقفة القديمة نفسها إلى أن تبدأ الذوبان، ولا تزال شفاهها المطلية تبتسم... دُمّرت البناية، والقتيل الوحيد عامل اسمه فيث، دخل ليستعيد أوراقاً.

★★★

يقول: لن أكذب عليك، حبيبتى تريزا. فمَهمتى أن أجولَ إلى الأبد عابراً طرقَ العالم وممراته المائية، فضولىٌ دائماً، أتقَصّى كلّ شيء، أتنسّم الزوايا والشقوق، منشَقّ دائماً، لا أستنبتُ جذراً بأيّ مكان، لا أتلبّث طويلاً للتبصّر فيما وراء الأشياء.

★★★

الصيفُ ثانيةً والسماءُ زرقاء، لا تمطر هافانا من أسابيع. الحرّ على الزجاج، لا أمل فى أن يعتقنا بأىّ مكان.

أُسند نفسى على كوعى. عيناه مغمضتان. ألمس جبهته، أدفع الشَعر عن جبينه، ألمس حاجبه وأسفل عند زاويتَى عينَيه وجنبَى خدّيه ولا يفتح عينَيه. على فمه إصبعي، وأقمع رغبتى أن تلتحم شفتاى بشفتَيه. أُريح يدى تحتَ فمه، أتخلّل لحيته، تحت حلقه، فأحسّ برجفة أنفاسه.

لا ينبس. ونحن مطمئنان فى سييرا، ومن دون أن يفتح عينيه يقول: عندى جنديّ اسمه يتمو جيراه. وهو يبين لك القيمة الصغيرةَ للأسماء. فبسبب الحرب لم يكن للرجل كُنية. وكان جباناً خائناً. كشفناه عبر عدد من الأحداث.

يفتح آرنستو عينيه. ركع يتمو على ركبتَيه. يطلب هادئاً أن نُطلق عليه النار. لديه قليل من الكرامة، فى العراء تحت الشمس، على ركبتَيه. وما من دفاع أو بكاء أو بيان يدلّ على أنه يفعل ما يثير الاستياء.

يقف آرنستو مستديراً إليّ. يقول: لا أحد يعرف هذا. بدأت تمطر، طوفان معتم، سماء كلّها مسودّة: الشجر والعشب وأيدينا. موقف... غير مريح. لا نريد فعل هذا. يتمو أخونا. لا أستطيع فعل شيء. وعليّ إنهاء المسألة بنفسي يا تريزا، فاهمة؟ بنفسي، فلن يفعلها غيري. في ومضة كالنسيم. ضربتُه قبل أن تطرف عينه بمسدّس ٣٢ في الجانب الأيمن من دماغه.

آرنستو هادئ. مطر يهطل بالفناء. يميل ناحيتي هامساً. نَزّ ثَقب في صدغه الأيمن. يهمس: ثَقب في الصدغ، يا جيفارا، في الطبيب العجوز.

شهق فمات. يقول هادئاً والغضب قد راح منه: تظنين أني أحببتُ ذلك؟ تظنين أني أحببت ذلك؟ بهدوء شديد كسؤال يطرحه على نفسه.

وبعد برهةٍ، يقول آرنستو: بموت يتمو، بدأتُ آخذ متعلّقاته. كانت ساعته مسلسلة بحزامه. لم أستطع خلعها، مع أني حاولتُ. بعد ساعات من موته، قبض يتمو جيراه على يدي. قال الميت: اخلعها يا ولدي، فماذا يهمّ...

يقول آرنستو: وهذا ما لم أفهمه. فقد مات فعلياً.

نرقد معاً، رعد بعيد يغلق المدينة. لا يتكلّم أحدنا الآن. أُريح رأسي على ظهره وأنا أُنصت إلى أنفاسه. كلّ نَفَس يخرج رخياً بسيطاً. نرقد زمناً، وأنا أُنصت. يختلط صفير ناعم بالزفير، كجرس إنذار شارد. ثم يعود زفيره إلى مجراه. تشتدّ عضلات ظهره ثم ترتخي. فيرقد ساكناً، وأعلم أنه يحاول التحكّم بأنفاسه. بعدُ يعلو الصفير، كلّ نفَس جديد بجهد أكبر إلى أن يجلس مائلاً للأمام. يأخذ يدي ثم يدفعني. تنقبض العضلات تحت أضلاعه، عضلات وجهه ومعدته. أقف راكعة أمامه. دواؤك، دواؤك. كان ساكناً وجلده بارد. أقول: أنت تزرَقّ؛ دواؤك. قلبي يخفق. دواؤك يا آرنستو!

أجرى نحو سترته فأفتّش جيوبها حتى أجد الحقنة. أملأها كما رأيته يفعل. وجهه شاحب جداً. طائر صغير منهار، تضغط أضلاعه المذعورة النحيلة على جلده. يداى ترتجفان. أمسك الإبرة فى ذراعه، ولا أستطيع ضربها. يرنو إلىّ فلا أرى بعينَيه الداكنتَين ما يستدعى الخوف، مجرّد استسلام مُحيّر. أتردّد. وجهه شاحب جداً. فأُقحم الإبرة فى جلده، أتطلّع حولى ريثما أُفرغ الأدرينالين فى دمه. يهدأ اندفاع صدره المسعور. يزداد صفير حلقه ثم يستريح. يرقد على المرتبة. وأقعد على الأرض فترتاح أنفاسي. يستردّ وجهه اللون. يغمضُ عينَيه. حين يتكلّم من جديد يقول: تريزا حبيبتى.

★★★

أسير وحدى للمنزل. ظهيرةٌ حارّة تحت سحبٍ سوداء. يُسرع ولدٌ بدراجته والريح فى إثره تعفّر قصاصات ورقٍ فى الشارع. أسير، لأهدئ ثائرة قلبي. أمامى رجل أليف من ميلان كتفيه. رأسه للأرض وهو يسير، يداه فى الجيبَين. يدور عائداً، فأسير بعيداً عنه. أعبرُ الشارع عدواً، فتُطلق السيارات نفيرها. ينظر رافعاً رأسه وهو يسير، فأوقن أنى لا أعرفه.

★★★

قال كالستو قبل رحيله إلى مدريد: ألا تفهمين أن كلمة ثورة مقدّر عليها الفشل؟ لأنها تظلّ تلفّ محتَجزَة ضمن قلعتها اللفظية، مرغمة على تتبّع خطوتها نحو الخلود.

★★★

ولدتك فى منتصف الليل، ملأتنى صرخاتك رُعباً ثم رَوعاً، أأنا التى خرجَت منى وافدة جديدة، جديدة بقلب خافق.

★★★

سأمنحك يوماً حياةً طيبة. حين يعود حبيبي. سأصبح أمك. كنتُ أنتظر فأرسلتك بعيداً عن الجزيرة لتتحرّرى من أصواتها وهوائها العليل.

رسالة على الطريق

جلستُ مع رسائل تريزا زمناً. لم يمنع عنى لغو المنفَى فهمَ تعقيدات حكايتها. لم تكن ميامى مدينة أبطال رومانسيين؛ بل كان تأسيسها للثورة شيئاً خفياً منكَراً منسياً. أىّ فرح واعد أحسسته من كلمات تريزا كانت تقوّيه الحكاية المتضمّنة فيها. وسط إحساسى بالحيرة تلك الآونة، تحركت للتخلّص مما بالطرد وساندتُ تلك النية. لكن بعد وهلة، أعدتُ بحرص حزم رسائل تريزا وصورها. لا أعرف ما عليّ فعله، فأعدتُها من جديد إلى صندوقها. ولصقتُ حروف الطرد باللاصق ثم لففتُه محكماً بخيط من القنّب. ودفعتُ الصندوق فى خزانة، وضعته فوق رفّها الأعلى.

قُدتُ سيارتى بعد أيام إلى حيى القديم. فلم أعد إليه منذ وفاة جدّي، ودُهشتُ من تغيّر الشوارع قليلاً، لكن بدت لى المنازل مألوفة. هناك الشرفة نفسها والسلّم المفضى إلى الباب الأمامى ونافذة اعتدتُ إطلالتها وتصوّر العالم من خلفها، مَن سأقابلهم، والمرأة التى سأكونها. أواخر الظهيرة والشارع مهجور. ركنتُ قرب المنزل. الدرب خالية والستائر مسدلة. زرع أحدهم أزهاراً حمراء تحت عتبة نافذة، والمرج أخضر مزركش. انتظرتُ أتطلّع إلى المنزل طويلاً، أرقبُ الداخل والخارج. غفوتُ برهة من الحرّ. وحين صحوتُ كان الوقتُ نحو المساء. من السيارة لمحتُ عن بعدٍ هيئة ولد يتمهّل على الرصيف تجاهي. زيّه يناسب الحرّ، شورت طويل وقميص أبيض بكُمّين قصيرين واسعين يؤكّدان نحول ذراعيه. جعلنى هدف سيره ـ مائلاً طفيفاً من الخصر ـ أظنه صغيراً على سنّه، فلم يبد أكثر من خمس سنوات، مع ذلك ميّزتُ ثلماً بحاجبه. شَعره أسود منسدل على وجهه، يزيحه أحياناً فى تبرّم بيد واحدة. أراقبه فلا أنبس بحركة. يبطئ وهو يقترب. يقف على الرصيف أمام المنزل. يستدير متطلّعاً إليّ. أجلس ساكنة. تمرّ دقيقة أو

مشهور اسمه "قصائد القبطان". نشر نيرودا أولى قصائده باسم مستعار عام ١٩٥٢، لكنه لم يعترف بها حتى عام ١٩٦٣، ربما بعد عام أو اثنين من مولدك. وكتبَت إن مَن أرسلك إلى الولايات المتحدة ربما عثر على نسخة من طبعة ١٩٥٢ المنشورة في نابلس ولم يكن لديه فكرة عن مؤلفها، فقط أعجَبته القصيدة. وكتبت الأستاذة: سبب آخر، تفسيرٌ أبعد قليلاً. كان تشي جيفارا صديقاً للشاعر، ومن المحتّم أن نيرودا أهداه قصائد الحب هذه. وعلينا من هنا أن نقوم بسلسلةٍ وثَبات تنتهي بنا إلى الأبيات القليلة المدبّسة بسترتك. كتبَت، وهو أمرٌ آسر. والتفصيلة الوحيدة التي ترجّ يقيني، أن الحكاية التي سطّرتها هذه المرأة هي غالباً ضربٌ من الخيال.

أنهت د. كربالو رسالتها بدعوتي إلى ميعاد بعد الفصل الدراسيّ، حيث يتوفّر وقت أكثر لنقاش هذه الأمور معي. وأضافت، لقد أسرتها الكتابات. وستسعد أن تراني بعد هذه السنين.

★★★

أبعدتُ رسالة د. كربالو أياماً، وحاولتُ في الوقت نفسه، كما يقول الكوبيون، إعمال ذاكرتي في من تكون والدتي.

لم يكن اسم جدّي ديلندر، ولم أجده بدفتر هواتف ميامي، وهو بحدّ ذاته فأل سيء. سيطر عليّ انطباع أن كلّ منفيٍّ كوبيٍّ، مهما كان مستقرّه بالعالم، يظلّ منتسباً إلى جذر في ميامي. فتّشتُ عن لندر بالقاموس فوجدتُ في طبعة الجيب أن الكلمة تعني "الغدّة المنتفخة"، وتساءلتُ ربما اتّخذته تريزا مزحة على زوجها اللغويّ. كتبتُ بضع رسائل لقسم اللغويات بكلّ من جامعتي ميامي وفلوريدا الدولية فيما لو صادف أحدهم شيئاً وإن من بعيد عن كالستو في هافانا. فتسلّمتُ من جامعة فلوريدا ورقة تبيّن أنهم لم

اثنتان. يسرح ببصره ثم يسير ثانية، أمام المنزل ولأول الشارع حيث تتبعه عيناي. يدور جسمه الصغير مبتعداً فيتلاشى، لمحتُ نافذتي فابتعدتُ بسيارتي عن المنزل.

استعدتُ الصباح التالي طرد تريزا من الخزانة. قصصتُ اللاصق وقشّرتُ الشريط. أفرغتُ الصندوق على الطاولة، فانسابت منه رسائل وصور. تمهّلتُ وأنا أعيد قراءة حكايتها. في ما تلى من أيام، كنتُ أجلس ساعات لفحص الخطّ وتحديد تاريخه. أصلح عدداً من الصور. أتقصّى فمه ويدَيه وأتتبّع ميلان عينَيه. أفعل ذلك بتنقّل بارد، كأن الحكاية المتّصلة ليست حكايتي، كأن رسائل تريزا تحمل ذكريات غريب، بعضها حميم حتى أني أتلذّذ بالقراءة من طريقة حكيها. قبل ذلك بزمان، بدأت نبرة صوتها غزو أحلامي. إن حياتها المستحيلة أكثر حقيقية من حياتي. وبعد أسابيع من تسلّم طرد تريزا، أمّلتُ أن أمي قد نفحتني رسالة حبّ. واشتقتُ، برغم الحكم الذي أبديته أولاً، أن أبرهن على صدق كلماتها.

وكان أول ما فعلته أني أرسلتُ خلاصة حكاية تريزا إلى د. كربالو، أستاذة التاريخ الكوبي بجامعة ميامي التي أخذتُ على يدَيها بعض الدروس. خشيتُ ألا تذكُرني فبعثتُ إليها رسالة طويلة تفسّر هويتي ولِمَ أنشُد معونتَها. تسلّمتُ بعد أيام دعوة من سكرتيرتها تطلب مني إرفاق المزيد. وهو ما فعلتُه، وبعد أسابيع تسلّمت ورقة مهذّبة من الأستاذة. تؤكّد أنها تمتّعت بالرسائل وقد بادلتها مع زملائها، الذين علّقوا بأن معظم الحوار المنسوب إلى جيفارا موجود بكتاباته؛ وإن بسياق مختلف نوعاً، كما أضافت. وكتبَت إن خلفية رسالتي فتنتها كثيراً. أما مقطوعة الشعر المدبّسة بسترتي فهي من قصيدة بابلو نيرودا "رسالة على الطريق". ظهرت القصيدة بديوان

الظهيرة. لكنى حدّدتُ موعداً لرؤيته بعد يومين. رحّبُ بى مع خيبة أمله وهو يشرح لى اتجاهات مكانه المعقدة نوعياً.

كان يعيش فى مساكن شعبية متداخلة تضم عدداً من البنايات يدخلها المرء من نواحٍ مختلفة. وبعد تخبّط قليل، وفّقت فى العثور على مدخله كما دلّني، وكانت تحرسه ذراع آلية وامرأة عجفاء بكشك أبيض. قلتُ لها اسمى واسم مَن سأراه، فاتّصلت به. وارتفعت بعد لحظة الذراع الآلية فى ترنّح، وضاعت منى دقائق وأنا أمضى على غير هدىً فى الموقف الشاسع وراء المدخل.

وجدتُ بناية جاكنتو فجأة (موسومة برقم وحرف، كما أتذكّر)، وكنتُ شبه منهكة. وقفتُ لحظات لالتقاط أنفاسى بالبهو المهجور قبل أن آخذ المصعد للدور الرابع.

وجدته ينتظرنى بالمدخل، يسير فى الممرّ المعتم ذهاباً إياباً. ودّ لو يعرف إن كنت ضعتُ وبدا متوتراً مما شرح لى من اتجاهات. تبعته داخل الشقة وأنا أؤكّد له طول الوقت أنى اهتديتُ من دون متاعب تُذكر. الشقة صغيرة، وقد جعلتها الكتب والأوراق المكتظّة بكلّ مكان تبدو أصغر. وعلى عكس بعض ممن رأيتُ فترة بحثي، كانت شقة جاكنتو نظيفة، وبعد وهلة سعدتُ برؤية الفراغ فى مرح تقريباً. وخطر لى أن كثيراً ممن فى سنى ينظّمون شققهم بعصبية، ينزعون منها أيّ أثر إنسانيّ بين حيطانها الأربعة.

قادنى جاكنتو إلى مكتب صغير، يكتظّ بالكتب أيضاً، لكنه بنافذة كبيرة تطلّ على منظر شاسع برغم أن أغلبه موقف سيارات. جلبت امرأة لم أرها ثانية صحن كعك وكوبَى ماء.

ولأنى لا أعرف جاكنتو، تردّدت أن أعطيه نسخة من حكاية تريزا. أخبرته، بعد المزاح المعتاد، أنى بصدد الكتابة عن الثورة ولمجرد الاطلاع المتبادل أودّ أن يخبرنى بعض الحكايات النافعة عن تلك الفترة.

يستطيعوا معاونتى، فما أسأل عنه معلومات شخصية. ولم تصلنى رسالة من جامعة ميامى.

حاولتُ التفكير من جديد فى الأسفار الكثيرة التى قمتُ بها إلى هافانا بادئة بأولها. أدركتُ أنه كان عليّ تسجيل يوميات وتدوين اسم وعنوان كلّ من منحته اسمى وعنوانى. أمر سهو ضمن خطّتى الحريصة نوعاً. صدمنى فجأة كخطأ فاجع أن المعتدلين يميلون للتمييز. وقد شتمتُ نفسى، فقد كان يُحنقنى دائماً عجزى عن تسجيل يوميات. وتساءلتُ، لماذا تسرّنى صور الغرباء بأسفاري، بدلاً من تسجيل أفكارى وانطباعاتى عنهم؟

وبرغم هذه العواقب المتخلّفة، طوقنى المشروع بنشاط جديد. فصحوتُ مبكراً يحدونى أمل أن أستطيع العمل للمرة الأولى فى حياتى طيلة النهار ونحو الليل دونما كلل. خطر لى أنى أجرّب لأول مرة تلك الآلام التى أمسكت بخناق تريزا، المرأة المجهولة التى صارت تملك علىّ تفكيرى كجزء مُكتشَف حديثاً من نفسى.

وهبتُ نفسى للبحث، فجمعتُ رفّين من الكتب عن تشى جيفارا والتاريخ الكوبىّ. فتّشتُ بالإنترنت أول الصباح، وحدّدتُ أولاً صورة لدمار مكاتب تيمبو ومن ثم صور أفرع انكانتو عبر كوبا كلّها. وطبعتُ الأخيرة على ورق خاصّ وبروزتها. وتخيّلتُ تريزا وهى تقف هناك، وراء حرف الصورة المحجوب.

★★★

خلال أشهر بحثي، حدّدتُ مواعيد للكلام مع ناس عرفوا تشى جيفارا عن قرب، لاستخلاص الأدلة ووجهات النظر المفقودة غالباً بالكتب.

وقادتنى بعض العلاقات القديمة من مشروع تصويرى الفاشل إلى جاكنتو كازار، وهو مصور سابق حارب فى صفّ فيدل وتشي، طاعن السنّ حالياً. حين اتصلتُ به شُغف للقائى واقترح أن آتيه بشقته حالاً، تلك

كنتُ أفكّر دائماً فيها وأنا أقصّ هذه الحكاية. وضحك. أعشق لوركا برغم أنى لم أعد شيوعياً.

ابتسمتُ. سألته: ماذا تريد إخبارى عن صحيفة تيمبو؟ ففكّر لحظة، يُعمل فى ذاكرته بوهن، حتى شعّ قائلاً: صحيفة مَن يُدعى مسفرير. أردف: ابتذلها بعد الثورة. قيل إنه ملأها بأكاذيب وافتراءات. وعرف الكثيرون أنه كريه؛ لكنى لم أقترب منه. كانت للصحيفة سمعة التحريض بالعاطفة.

وقال مبتسماً: كما تعرفين، لم يمت شيء بعد الثورة. فقد ظلّت جماليات هافانا وعللها تحاذى سناء ميامي. وأفكّر أحياناً أن المنفى ليس أكثر من عبور مختصر بمرآة. وانتهى الحال بصاحب تيمبو إلى نشر صحيفة أخرى أصغر فى ميامي. تعرفين؟ فهززتُ رأسي. قال جاكنتو: أظنّ اسمها لبراتيد؛ انتقلنا زمنياً للحرية ثم عدنا ثانية. وواصل: عموماً، كنت صغيرة فيصعُب عليك التذكّر. أظنّه كتب افتتاحية أواخر أكتوبر ١٩٧٥ يحضّ فيها على التفجيرات. وبعد أيام، قُتل بانفجار سيارته.

استجمعتُ شجاعتى قبل الرحيل فسألتُ جاكنتو إن كان يعرف شيئاً خاصاً عن تشي، أىّ غرام انخرط فيه. أمتعه السؤال الأخير، فرفع حاجبَيه فى فسوق. آه! هكذا المسألة. ضحك طويلاً ثم كفّ بمشقّة ليختفى فى الغرفة الأخرى. عاد بعلبة فيها مستنسخات لبعض كتاباته بإسبانيا. عاينتُها على عجل. فالمرء بطبعه فضوليّ، هناك رسالة توهم أنها من رينيه راموس ليتور "إلى تشى جيفارا، سنتياجو، كوبا، ١٨ ديسمبر ١٩٥٧". وفى البيت، قرأتها بعناية أشدّ. ها هنا جزء فقط، فسطورها تشفّ عن عاشق منبوذ، وكلّما أقرأ فيها أحسّ غصّة من تريزا، كأن شبح خيانتها يحوّم على تعاملات تشى مع المقربين منه.

كتب ليتور: تسلّمتُ تواً الرسالة التى وصفتَ بأنها "عصيبة"، وأوضّح

بدأ نقاشاً طويلاً لم يتحمّله دفتري. نعم، فقد كان بالقصر الرئاسيّ بعد ضرب يشفيرا بالنار؛ لا، لم يذكر حمّام الساحة، ولماذا أسأله عن شيء كهذا؟ نعم، قاتل أولاً بالمدن مع الطلبة الثوريين ثم راح للجبال وقاتل مع فرقة متمرّدين هزيلة شردَت. نعم، كان يظنّ أن ما يفعله صحيح ومهم. تكلّم طويلاً حتى بدأت حكايته تتّضح، كان يقفز من موضوع إلى موضوع مرة تلو أخرى ومن مكان لآخر وفقاً للسرد الذى يوافق هواه، كأن الماضى والحاضر بلدان متباينان يزورهما المرء اعتباطاً. وحاولتُ مرات أن أعيده إلى الحوار ومرة أو مرتين أخبرنى نادرة منعشة حقاً. كان، كما قال بإحدى اللحظات الهادئة العميقة، مع فيدل على الطريق من سنتياجو إلى بيامو بعد أول أيام النصر. والرجال كلّهم معه. قال جاكنتو إن الحشود اصطفّت أميالاً. وهو أكثر ما أدهشه. كنتُ أركب خلف فيدل على دبابة ونلوّح للحشود، وبينما تتريّث الدبابة تقريباً على هوى السير نسمع ما يقول لنا الناس. قال جاكنتو: من أول الطريق لآخره يصرخ الناس على فيدل. فيدل يا منقذنا. فيدل، هذا وطنك. شكراً يا فيدل. فيدل، يا مخلّصنا. ووقت وصلنا بيامو لاحظتُ على فيدل لأول مرة تغيّراً. وأظنّه مذ ذاك اليوم بدأ يصدّق نفسه هكذا. قبل، كنتُ أظنّه مخلصاً للشعب والديمقراطية. وبعد، رأيته يتلذّذ بالترحيب الملائم للملك الإله، و غيّر ذلك حتماً منه فى العمق.

جلس جاكنتو يتأمّل برهة ثم قال: تعرفين قصيدة لوركا:

"حين ينفجر البدر،

أمضى إلى سنتياجو،

إلى سنتياجو فى موكبِ مياهٍ سود"

وراء الحيطان. وبحالات أخرى، صادرت الحكومة أملاك جامعى اللوحات. وكان حتماً على كلّ فنان جيد أن يعمل فى الظلام.

ثم أخذت تعدّد حصيلة أفكارها عن الفن الكوبىّ. قالت: وصلت النهضة بالأربعينيات والخمسينيات حدّ أن اعتُبرت أكثر فترة مثيرة فى الحداثة الكوبية، كأن اضطراب السنين تركّز وتأوّل فى قوائم الألوان الخصبة. هذا وقت العظماء: فريدو لام، فيكتور مانويل، رينيه بورتكريرو. هناك أيضاً امرأة معروفة، إميليا بليز. رأتنى إلينا حين تغيّر تعبير وجهى لما أضافته مؤخراً. لكنها ليست تريزا التى تقصدين؛ فقد كان عمر إميليا وقت الثورة فى الستين، وقد توفيت عموماً فى هافانا ١٩٦٨ ، ثم أردفت: إميليا المفضلة عندى. فهى ابنة بلدتى فيلاس، وحين انتقل أهلها إلى هافانا استقروا فى فيبورا، حيث استقرت عائلتى أخيراً. ربما شكّلنا انطباعات مشابهة عن العالم - وقالت ضاحكة: إنى أتملّق نفسى. لا يهمّ أننا نسعى إلى الموضوعية والمدرسية عن الفن، فالمرء ينتهى إلى تفضيل الفنانين الذين يحاكون عالمه الخاص أكثر من أىّ شىء آخر. قالت: كانت تستحوذ على أحد رفاقى الكآبةُ من لوحة فنان بلجيكىّ من جيل رمبرانت اسمه مايكل سورتس. ولا تروق لى اللوحة، اسمها "دفن الموتى" - فهى سكونية مميتة ميلودرامية - لكنه يراها معبّرة عن قلقنا إزاء الموت، وفى البناية البعيدة كان يقرأ كلاسيكية روما على أنها مريحة. قالت: أما أنا، فلم أؤمن بالخلاص فى الماضى. وابتسمَت.

بعد لأى قالت: إن إميليا مفضّلة عندى لأنها جزء من حركة تقاطعت مع الماضى. ثم وقفت وسارت نحو خزانة كتبها الصغيرة. تناولت كتاباً، تصفحته وناولتنى إياه. قلّبتُ صفحاته برهة. قالت: ترين الأثر الكوبىّ طبعاً. هناك شىء آخر، الحمية، فهى تبدو لى دائماً كوبية، حتى فى أحلك أوقاتنا. كما صممت إميليا بالمصادفة لوحات نادى هافانا الليلىّ الخرافىّ جاتو

بجلاء أن محتوياتها تدهشني مع أنها لا تملك دليلاً على إيلامي، لأني لا أتصوّر نفسي خائناً للثورة الكوبية وأظلّ قانعاً في باطني أن حياتي الثورية قصيرة لكن نقية ومشرّفة، ولن تجرحني كلمات أمثالكَ، فأنت لا تعرفني جيداً حتى تحكم عليّ.

أصرّ جاكنتو أن يسير معي إلى سيارتي، وحين أغلقتُ الباب ولوّحت نقرَ حاجبَ النافذة ليشير أن أفتحه. قال: سأخبركِ أمرين عن تشي، فرغم أنه لم تسنح له الفرصة ليستحمّ كثيراً، إلا أنه عندما كان في سييرا، اتّخذ ألذّ عشيقة خلاسية صغيرة في عالم "أورينت" كلّه.

★★★

بعدها ذهبتُ لرؤية إلينا المتخصّصة بالفن الكوبيّ، عرفتُها عبر أصدقاء مشتركين. أملّتُ ربما سمعَت بفنانة تُدعى تريزا كانت تعيش في فيدادو بعد الثورة. وإن لم يكن ديلندر اسمها الحقيقيّ، فقد تستطيع على الأقلّ أن تدلّني عليها.

تعمل إلينا مستشارة لأمين متحف في فيسكايا. أرسلتُ إليها نتفاً من حكاية تريزا ظننتُ أنها تهمّها ورتّبتُ للقائها بالمتحف الثلاثاء التالي.

لم يكن مكتبها بالمبنى الرئيسيّ بل في مقطورة مؤقّتة خارج بوابة الخدمة، وأخبرتني إلينا أن خلاصة حكاية تريزا راودتها وتموتُ لكي تعرف الباقي. جذبَت حفنة أوراق استطاعت أخذها. ولسوء الحظّ أخبرتني مقدّماً أنها لا تعرف فنانة باسم تريزا من تلك الفترة. وقد سألت معارفها في كوبا وظلّوا يُلحفون لكن لم يذكر أحدهم شيئاً يفيد. ثم أخبرتني: لكن هذا لا يعني النهاية. وذكّرتني: كانت الفوضى ضاربة حينئذ، وقد دخل جامعو لوحات ومعارض كثيرة في أزمة. اندفع محبو الفن الأغنياء بالمدينة غالباً للرحيل، وبعضهم خاف على حياته. قالت إلينا: وكما تعرفين، اختفت الأعمال الفنية

قالت وهى تتابع نظرتى: إحباط قليل، أليس كذلك؟ يحس المرء غريزياً أنها ليست جميعاً على حق.

وابتسمتُ لهذا. قالت د. كربالو: أسعدنى أن أسمع عنك. طبعاً تذكّرتك، أو بالأحرى تذكّرتُ عملك. كنت تبحثين فى كتابات مارتى، صحيح؟ فأومأتُ. كيف استنبط مفهوم المنفَى الكوبىّ؟ رجعَت تومئ ثم توصّلت تحت مجلات إلى ملفّ فَشَدّته. بدأت تصفّح الورق الذى يضمّ حكاية تريزا. قالت: أثار اهتمامى حين أرسلته فى البداية. رفعَت بصرها إلىّ وهدأت برهة، فكان علىّ تفادى تحديقها. بعد لأى قالت: أثار اهتمامى، لأن أىّ معلومات عن حياة تشى جيفارا لها الأسبقية طبعاً. إنه أشهر كوبىّ فى العالم بعد فيدل، مما يدلّ على شىء: يبدو أن أشهر كوبىّ لدينا مولع بذاته، أما ثانى أشهرهم فهو أجنبىّ. أليس من الغريب أن تفتدينا المنافى؟

مالت للوراء بمقعدها، تضحك على مزحتها. هدأت فهزّت رأسها: آه. اتّخذتُ أيضاً سمت اهتمام فقد جئتُ هذا البلد وعمرى ستة عشر. نظرت إلىّ د. كربالو فلم أستطع أن أقرر إن كانت ملامحى قد أثارت انفعالها أم تحاول قراءة كذبة فى وجهى. ثم قالت وهى تفحصنى: عشتُ فى انديانا بضعة أشهر. مكان رائع حتى هلّ الشتاء. لم يكن البرد فحسب وهو ما كان شديداً، بل العتمة أيضاً وكآبة الظهيرة التى نجهلها بمناطقنا الاستوائية.

سكتَت لحظة قبل أن واصلَت: التحقتُ ثانية بأبى العام التالى فرحنا إلى ميامي. لكنى أتفهّم ذلك الشعور بالشساعة عند عودتك كما وصفته برسالتك. أتفهّم كيف يَغوَى المرء اختراع التاريخ فى غياب الماضي. نظرت د. كربالو إلىّ عن قرب. وفقاً لهذا الإحساس، لا أتفق مع تريزا وهى تشبّه التاريخ بأحداث شخصية. فالعالم أكبر بكثير من أنفسنا، برغم أننا نراه فى حجم قبضتنا.

تويرتو، حيث يجتمع الفنانون. واصلت إلينا: ولا علم لى إن كانت لا تزال هناك. هل تخطّطين للذهاب إلى هافانا؟ أظنك ستذهبين. فاسألى هناك. زورى أيضاً مرسم الفنانين العظام قرب الكاتدرائية. افتُتح أوائل ١٩٦٠ حين أقنع بابلو نيرودا صديقه تشى جيفارا أن يزوّدهم بالمطبوعات وفرنٍ لفنانى الحفر. يسهل العثور عليه؛ لن تضيعى.

سحبَت إلينا خارطة صغيرة ودوّنت اسماً. لو رحتِ إلى هافانا فاتّصلى بمدير المرسم. بلّغيه اسمي؛ فهو صديق. أشترى منه دائماً بعض القطع حين أصل هناك. وتكلّمت إلينا أكثر قليلاً عن مشهد الفنون المعاصرة فى هافانا، وسألتنى إن كنت أحبّ القيام بجولة فى المتحف وما حوله. ولأنى لم أخطّط لشىء آخر وكانت إلينا تفتننى، فقد قبلتُ بسرور.

★★★

بعد زيارتى إلينا، بدأتُ أقتنع باقتراحها السفر إلى كوبا. لقد ذكرته عفوياً فأحسستُ بالحمق أنى لم أفكّر فيه بنفسي. كنتُ أتساءل غالباً هل أظلّ أطارد هذه التحقيقات المفكّكة عن حياة تريزا. لكنى باشرتُ أمراً سأمضى فيه للنهاية. وأخيراً عرفتُ أنى سأسافر إلى كوبا من جديد.

★★★

قبل رحيلى اتصلتُ مع د. كربالو فذكّرتُ السكرتيرة بعرض الأستاذة أن ترانى.

استقبلتنى بعد أيام بمكتبها، وكان صغيراً لكنه مشرق مزيّن بأغطية علب السيجار. امرأة طويلة أنيقة، ودُهشتُ أنى تذكّرتُها قليلاً. لاحظتُ وهى تتحدّث أنها تمعن فى وجهي. مسكَت يدي، قادتنى نحو مقعد ثم جلست إلى مكتبها. الأرفف خلفها مكدّسة بالكتب، كلّها عن كوبا على قدر ما رأيتُ. وخزانة طويلة فيها صفوف روايات. الأخريان اكتظّتا بكتب التاريخ، قليل منها أعرفه من مجموعتى المتزايدة.

جبينك ناتئ. وبدأتُ أعرَق، فشكرتُها ثانية وتمنّيتُ أن أردّ عليها وقارها وكرامتي، فخرجتُ بلطف قدر ما أستطيع.

كأنني في ميامي أرحل عن حوارية ودود برجفة طويلة، حقد يسري تحت السطح. تولّد عندي، كما فعلت مع د. كربالو، حسّ بأن من يثرثر معي في أريحية يودّ أن أزعجه، فيستبين ببراءة أو من تصريح جاهل سراً يتعلّق بعقائد منفّرة.

★★★

ما أثار قلقي هو الشكّ في أن الأستاذة ربما على حقّ؛ حكاية تريزا مستحيلة. جهّزتُ خططي فعلاً، فلا خيار أمامي سوى الرحيل إلى كوبا بعد أيام.

حسبَ اقتراح إلينا، قدّمتُ طلب التأشيرة للسفر إلى الجزيرة، وهو ما لم يتعبني قبلها. سجّلتُ عائلتي "تريزا ديلندر، العنوان مجهول". ولدهشتي، منحوني التأشيرة.

كان عليّ السفر في رحلة طيران شارتر من ميامي إلى هافانا، ونصحوني بالذهاب إلى المطار قبل أربع ساعات على الأقلّ من موعد الرحيل. أخذتُ سيارة أجرة إلى مطار ميامي الدوليّ وسألني السائق إلى أين. أخبرته دون تفكير: هافانا. راقبتُ وجهه يتغيّر بالمرآة الخلفية، سكت ثم مضى يقرّعني طويلاً لوضعي مالاً في جيب كاسترو. وضّحتُ أني لا أخطّط للإنفاق كثيراً، فلستُ سائحة بل أودّ العثور على أمي. فهدأت ثائرته مما ذكرتُ، وبعد وهلة قال في لين: هذا أسوأ ميراث للثورة الكوبية، تمزيق العائلات. فابنه الوحيد، كما قال، لا يزال في كوبا مع أمّه. ولم يره منذ أربع عشرة سنة. وحين نزلت، ساعدني في حمل أمتعتي وقبلني للوداع على خدّي.

استفهمتُ إن كانت تتّهمني بكتابة رواية تريزا بنفسي، لكن لا أتمنّى الإصابة بالفصام وتضخيم مفهوم الذنب، فأومأتُ كأني أوافقها. توقّعتُ أن تستمرّ د. كربالو لكنها جلسَت ترقبني بتعبير فضوليّ. ارتبكتُ وغمرني خجلي المعتاد فتمتمتُ وأنا أسألها ببعض الشكر عما إن كان هناك سبب تودّ أن تطلعني عليه، غير تمديد عطفها، الذي غمرتني به فامتننتُ.

قالت د. كربالو: أردت رؤياكِ طبعاً. وأيضاً، لم أُرد أن أخيّب أملكِ في رسالة. فأنتِ طالبة ممتازة، كما أذكر، مباحثكِ تخلو دائماً من العيوب. اتكأت على مكتبها. هل تعرفين امرأة اسمها ليليا بيريز، ولدت طفلاً من تشي أول الستينيات ١٩٦٣ أو ١٩٦٤ ، توقّفت د. كربالو، وربما كانت تنتظر ردّة فعل تبدو على وجهي. قلتُ: لا، لا أعرف. أومأت د. كربالو. قالت: طفل ذكر. وهل تعرفين أن ليليا قابلت تشي في سانتا كلارا - أظن عام ١٩٥٨ - ثم في كابانا. قالت: عليكِ الاعتراف أن كابانا أحبّ من فيدال لتكوين معارف ثورية.

ملتُ للوراء بمقعدي. قلتُ: تقصدين أن حكايتي أكذوبة؟ فهزّت كتفيها: ألا يهمك؟ لم أستجب. قالت: هناك بضعة أخطاء بالتواريخ. إسقاطات. وقد لا يهمّ هذا بقصة حبّ. لا أعرف. ردّت تبتسم: وددتُ لو رأيتُ كيف نشكر جيفارا على استقدام السجون السوفيتية إلى كوبا. وتأسّفت وهي تواصل بجدّية أكثر: لستُ هنا لأخيّب آمالكِ. فأنا لا علم لي بكِ. لكن يصعب أن أقرأ عنه عاشقاً؛ كما يصعب أن أرى صورته. أردت عونكِ بما أستطيع، وإن كنتِ حقاً تريدين رأيي، فأخشى أن ما لديكِ هو إعادة استنساخ مستحيلة للتاريخ، حيلة بديعة.

كنتُ هادئة. وبعد برهة وقفَت فوقفتُ. سارت نحوي تتطلّع في وجهي زمناً، ولصدمتي مدّت يدها وأجرت أصابعها على جبيني. همست بليونة:

حقائب رثّة محزّمة، كأنها مزَق ملفوفة، تلفت انتباه الأساتذة. لم يكد أحدهم يقول إن الحقائب تبدو بينهم غريبة حتى تقدّم آخر يسأل العائلة صريحاً عن سبب لفّ حقائبهم بالبلاستيك. هزّ الرجل رأسه علامة أنه لم يفهم، فسأله الأستاذ المتسلّى بالإسبانية. نظر الرجل إلى زوجته فهزّت رأسها تهمس بشيء وهي تحضن ابنها. يستهجن الرجل فيهزّ رأسه. قال بالإنجليزية: من دون سبب. أصرّت المرأة: لكني لا أفهم. قال الرجل: ما الهدف؟ لا هدف، من دون سبب، هل بالأمر مشكلة. تصرّ المرأة ثانية فيدير الرجل ظهره ورائي ويبدأ الهمس مع زوجته ببساطة. لم أتأكد بأيّ لغة يتحدثان.

كان موعد الرحيل عندئذ قد جاء وراح. لكن يا للغرابة، راح معه قلقي المعتاد. شعرتُ أني جزء من كتلة ناس منسابة أقوى من المواعيد. حان دوري إلى امرأة عند طاولة مطوية، تفحص اسمي وجواز السفر ورقم التأشيرة على ورقة طُبعت من كمبيوتر. بعدها مُنحتُ رقماً، ثم انتظرتُ حتى سُمح لي أخيراً بالمرور مع أمتعتي إلى غرفة أخرى، حيث تناول الحراس حقائبنا، نخسوها هنا وهناك قبل أن يودعوها على سير نقّال مضى بها. وحين بُعثتُ من عتمة تحت الأرض حاملة تذكرتي، تذكّرتُ بحنان كم كان السفر بسيطاً إلى جامايكا السنين التي خلت. بدأت التحسّر من هذا السفر القانونيّ وارتعبتُ أيّ معذّبات تنتظرنني على الجانب الآخر من هافانا. بقيت ساعتان على موعد الرحيل، وحين سألتُ امرأة على البوابة ابتسمَت: لا تقلقي.

في هافانا، انسللنا من الطائرة بعد منتصف الليل ثم إلى باص مخلّع أسلمنا إلى الموقف. سقط قلبي قليلاً من الصفّ اللانهائي بقسم الجوازات.

داخل المحطة التى وجهتنى إليها وكالة السفريات، لم أجد دليلاً على الطيران إلى كوبا. فكلّ من سألته، من الحمالين إلى وكلاء السفر، تطلّعوا فيّ من أعلى لأسفل ثم ردّوا: لا علم لنا. أحسستُ بعد حين أننى أطلب أقرب متجر إباحىّ.

بعد دقائق متوتّرة من التجوال حول الممرات، حدّدت سلّماً وقررتُ أنى لن أخسر شيئاً بالنزول. مكان معتم فلم أميّز فى البداية حشود الواقفين صفاً تحتى.

تغيّر الصفّ بالساعات القليلة التالية، انتفخ، نحف، لكنه لم يتحرك. جاء ناس وراح ناس كمن يقف لمجرّد التجربة. مزاج من الوهم، فبدأتُ أتساءل إن كنتُ فقدتُ عقلى. وقبل ساعة من موعد الرحيل، اكتسب الصفّ نظاماً فجأة، خطر لى أن معظم هؤلاء معتادون على التدريب العسكرىّ. راح قلقي، فأصبحتُ أركّز فيما حولى من حوارات. وقف أمامى عدد من العجائز المهندمين المشاهير فحدستُ أنهم أساتذة. بدت إحداهم سكرانة، مع ذلك لم تكن فظّة. كانت أكثرهُم حيوية، ولم أمنع نفسى من التحديق فيها فهى تتكلّم بانفعال عما سيرون من أماكن خرافية وعمارة خرافية وبشر خرافيين. ثم أنشأت نقاشاً عن مقادير حلو موجيتو، فشعرتُ بإغراء الدخول فيه بدلاً من التفكير فى شىء آخر.

خلفى وقف زوجان صارمان مع ولد صغير أظنه ابنهما. ثلاثتهم فى ملابس جديدة براقة، فخمّنتُ أنهم كوبيون عائدون من زيارة أقارب فى ميامي. لا يتكلّم الزوجان وإن حدث فهمساً. مثل معظم المسافرين، تحيط بهم حقائب ثقيلة ضخمة. حقائب لفّها بالبلاستيك باعة جائلون يتكاثرون عبر المطارات فى السنين الأخيرة.

الطيار قبل أن تنهشنى الصدمة فأرتطم بالأرض. جثمتُ تحت النافذة حتى راح الطنين فوقفتُ منتبهة فجأة، أسأل نفسى إن كنتُ اخترعتُ المنظر. بعد لحظات سمعت الطنين ذاته وانبعثت من تحت الفندق الطائرة، وأظنّ الطيار كان يلوّح هذه المرة باتجاهى.

★★★

لا أُفطر عادة بالفنادق، أُفضّل مقهىً صغيراً حيث أتلبّث عبر القهوة فى صمت من دون هياج العائلات الكبيرة، التى أعرف من واقع خبرتى بالسفر أنهم يفطرون فى كافيتريات الفنادق. ومما أذكره عن هافانا، استبعدتُ خيار المقهى. فنزلتُ بالمصعد إلى غرفة الطعام وأنا أرتجف، لا من ضوضاء الأطفال الجامحين المستنفَدين من السفر وهو ما وجدته فعلاً، بل من الطعام المميت الذى يرصّونه بمراسم تفطر القلب. حين كنت آخر مرة، كان البلد يبدأ فترته الخاصة وحتى السياح - الذين يفتنهم طقس الاستواء - توقّعوا الخبز الأبيض ولحم الغداء الباهت المقزّز يوماً بعد آخر فى غرفة طعام قذرة.

حيّانى باهتمام فى الدور السفليّ جمعٌ من النُدل العدوانيين الشغوفين. تناول أحدهم سند إفطارى (يبدو أن هافانا تحولت للدولار والشيكات السياحية)، وأمعن آخر فى اسمى على الكمبيوتر، وابتسم ثالث مشيراً إلى الغرفة الرئيسة.

دُهشتُ حين لم أجد ما أذكره من حالة الأسى، ولا البوفيه البائس الذى نراه أحياناً فى فنادق أوروبا الدنيا، بل غرفة طعام وامضة مرتّبة حول جُزر مكوّمة لأعلى بفواكه استوائية، أنواع من خبز وعجائن وعصائر ولحوم مقدّدة وسجق. على طرفٍ تصبّ امرأة بزيّ أبيض فى أسود عصيرَ جوافة بأكواب صغيرة. وبطرفٍ آخر يطلب رجل مرح بقبعة بيضاء طويلة بيضاً

لكنه تحرك بسرعة معقولة. وسجّل معلوماتى شابٌ لطيف المنظر انتهى بأن طلب منى موعداً. مع آخر مهاجر، فرغَ المطارُ، وأُطفئت معظم الأنوار. جمعنا حقائبنا، وارتحتُ أن لم أجد أحداً يحرس باب الخروج.

مع ذلك كانت ليلةَ نهاية الأسبوع، فكلّ من هو خارج المطار خمسة أو ستة. يصرخ معظم الرجال والنساء على أقاربهم، كثير منهم تصوّرت أنهم تغيّروا مع السنين فلم أعد أعرفهم. أخذتُ سيارة ظلّت تشخلل إلى هافانا ليبر، وتذكّرتُ قليلاً ما حولى من ريف معتم؛ وبالفندق سلّمتُ كفالتى إلى مكتب الاستقبال ثم وجّهتُ فى مشقّة نحو غرفتى حتى انهرتُ بالفِراش.

★★★

تنبّهتُ مبكراً الصباح التالى مع طلعة الشمس فى الستائر المفتوحة. وتذكّرتُ بعد ثوانٍ أين أنا. فسرتُ للنافذة، وقفتُ أمامها لحظات.

منحونى غرفة عالية إزاء المحيط، يأخذ الماء نصف المنظر تقريباً. يلمع فضياً أزرق فى النور الباكر، ففُتنتُ بهذا الجمال. عرفتُ أن وراء الخطّ يقابل المحيط السماء حيث تقع ميامى، رحلة قصيرة تبدو كأنها أطول رحلة قمتُ بها فى حياتى، أحسستُ بالبعاد عن العالم الذى خلّيته. وإلى الغرب، حدود فندق ناسونال الفخمة. تحتى وحولى شوارع هافانا، فتبدأ الحياة تفعمنى. نظرتُ إلى المدينة فى عجب مَن يميل إلى رؤية الشوارع من هذه المسافة، تبدو صغيرة مرتّبة. تسقط عيناى على المنازل المصطفّة الدقيقة شرقاً، وتساءلتُ بأيها تحلم تريزا. فوق أىّ شرفة تقف لتحدّق بالفندق حيث أقف الآن عند النافذة، كأنى أُشرف على عيون ماضىّ؟

حين فكّرتُ فى هذا بنوع من الحلم وعيتُ فجأة منسوب الطنين. حوّلتُ نظرى هنا وهناك حتى انبعثت من تحت بناية، كشىء تمزّق من بُعد آخر، طائرة شراعية قديمة. مرّت منخفضة تكاد تدنو من النافذة، وأظننى رأيتُ

سرتُ بشارع إل قليلاً ثم درتُ إلى شارع ٢٥ وتتبعته حتى البحر. تذكرتُ السنين أمامى حين كنتُ أسير فى هذه الشوارع المشابهة بالهدف نفسه: معرفة شيء عن أبى. ولم يكن يروّعنى الطرْق على أبواب الغرباء. لكن فيما مضى، كان خجلى الطبيعيّ مستقراً داخلي، كبقعة ظلّت مع العمر، وفى رحلتى الأخيرة إلى هافانا درتُ مرات أبتعد عن باب ويداى تعرقان. عرفتُ أنى أخيراً سأفعلها، أطرق باباً غريباً وأسأل عن شيء وأنشغل. لكن بأول يوم قرّرتُ وهب نفسى مزيداً من الوقت لأعتاد الفكرة. فقضّيتُ ساعاتى الأولى فى هافانا أمثّل دور سائح آخر، أقف أحياناً أمام منزل بديع قديم مهدّم أعجبتنى خطوطه، وأتساءل: هل هو المنزل؟

فكّرتُ ثانية فى هذا، ظننتُ أنى انشغلتُ بتغيّرات المدينة فى عشر سنوات، كم هى تشبه قليلاً هافانا التى أذكرها. كانت الدولارات غير قانونية حين بدأتُ الوصول هنا، بينما الآن هى العملة الوحيدة المقبولة بمعظم الأماكن. تحتشد مداخل حتى أصغر الفنادق بالشابات الجميلات فى جونلات قصيرة، شركات خاصة لسياح أوروبا أعادت ساعة العاصمة للوراء. رأيتُ جميلة بساق طويلة واحدة فى ذراع رجل قصير سمين، ودُهشتُ كم من السياح يدّعى التعاطف مع الثورة حتى وهم يستخلصون الثمار التى مال باتستا ذات يوم إليها.

تبدو التجربة الاشتراكية فى كلّ مكان ميتة مدفونة، تنتظر إعلان الوفاة من زعيمها الراديكاليّ. كلّ من مررتُ بهم فى الشوارع من رجال ونساء كانوا بلباس أفضل مما أتذكّر، يتحركونْ مسرعين كأنهم يستعجلون الوصول إلى مكان. وتحت كلّ بناية يوجد محل جديد. تجوّلتُ أدخل فيها وأخرج منها، لعلّى أعثر على صور أو كتب قديمة. لكن يبدو أن معظمها مخصّص للشائع من الغرام. فى شارع تحت الفندق، افتُتحت محلات

مقلياً. وقفتُ فى صفّ البيض المقلي، وبعدما أخبرتُ الطباخ عما أريد سألنى من أين. لم أُرد لفت الانتباه إلىّ كأمريكية، فرددتُ تقريباً دون تفكير: إسبانيا. نظر ثانية فقال: آه، الجنوب إذن. أومأتُ فى تبرّم، لكنه ألحف فى السؤال. منذ متى؟ الليلة الماضية. وحدك؟ هل يعمل مع الحكومة؟ لم أحدّد هويته متعباً كان أم مفصوماً، سيان، فرددتُ: وحدى حالياً وسيلحق بى زوجى قريباً.

ارتحت مع فنجان قهوتى الثانى، من أين جاء ردّى أن هناك زوجاً. فلا أملك وعياً ذاتياً بكونى غير متزوجة. ولا أظنّ أنى أملك حتى هذا الوعى الذاتيّ. فحقيقة أنى غير متزوجة هى إحدى الأشياء التى تقبلتها. لم أحسّ بها كثيراً. ولستُ ضدّ فكرة الزواج، كما أنى لا أتوقّع أن زواجى سيغيّر حياتى بأيّ شكل. لقد وقعتُ فى الغرام مرات وكان أمراً ساراً، لكنه لم يحدث كما نراه فى السينما، مثلما كتبَت غنه تريزا. ولا طريقة عندى لأعرف إن كان نتيجة خيبة دورى أم دور العالم؛ فى النهاية لكلّ امرئ كون صغير من صنعه. لكن هذا الجيشان عن الزوج جعلنى أتساءل إن كنتُ على يقين مما أؤمن به من أشياء.

★★★

خرجتُ يسار الفندق فسرتُ نحو شارع إل، لا يزال الحىّ مألوفاً برغم رحلاتى إلى شوارع جدّى القديمة. أعرف أنها لا تعيش بالمنزل القديم، لكن يُفترض بى العثور على شخص يعرفها. لا خطّة عندى للعثور عليها. فاتّخذتُ احتمال أنها لا تريد منى العثور عليها. عموماً، إن كان ما كتبته صحيحاً، فقد اغتنمت الفرصة منذ سنين لتشغلنى شخصياً ثم تخيّرت أن ترسل صندوقاً مجهول المصدر. لم تُرفق عنوانها.

وبعد عدة بناياتٍ أبطأ ولدٌ صغير خطوتَه حولى فسرنا معاً صامتَين. أهلاً، قلتُ أخيراً بالإنجليزية. ردّ: أهلاً. بريطانية؟ ففكّرتُ لحظة. قلتُ: بل كوبية. سكت متظاهراً بالدهشة، فضحكتُ من هذا الممثل الصغير. سار معى الولد مسافة طويلة، يشير إلى المنازل وهو يخبرنى عنها حكايات خرافية: فى هذا المنزل تنين معروف. انظرى دخان أنفاسه؟ حيث يقف يومياً للفرجة على المارة. طفل مرح، فوجدتُ نفسى أتبعه بعد برهة بدلاً من أن يتبعنى هو. وصلنا أو قادنى أخيراً إلى سوق منبسط بالخلاء بدا ناهضاً كشبح من جزء غير ملوّن من هافانا. وقبلما أحتجّ مسك يدى يقودنى للدخول. مررنا بأكشاك مكوّم فيها رؤوس خسّ وجزر وفجل وطماطم، وأكوام من التفّاح الأخضر الطازج. جذبنى الولد الذى أجهل اسمه فأوقفنى أمام محل جزارة وبدأ يطلب. لعبتُ دور المغفل وقضّينا ساعة أو نحوها نتسوّق مثل أمّ وابنها، يدبّر القائمة وأزوّده بالدولارات، مع عملة يسمونها دولار بيزيتا كانت الوحيدة المقبولة.

غادرنا السوق المفتوح محمّلين بالأكياس. تبعتُ الولد إلى ممرات ودورات بالشوارع وأرصفة مهشّمة وعجائز يقفون لمرآنا حين نمرّ قربهم. وصلنا بعد سير لا متناه إلى مَجمع سكنيّ ضخم. كانت قدماى تخفقان وأصابعى حمراء مورّمة من حمل الأكياس. دعانى الولد لرؤية أمّه، فرفضتُ بأدب. كنتُ أخشى دخول بيوت الناس، فقد قضيتُ أسفارى الطويلة فى عزلة. أصرّ الولد، وحين بدا أنى لن أتزحزح صرخ على النوافذ: هاي، فيجا! فيجا!

ظهرت بعد ثوان امرأة شابة جميلة بنافذة فى الدور الثالث وهى تلوّح بإشارة من يدها لأصعد. لنتُ أخيراً فتبعتُ الولد إلى البوابة، ومع أن واجهة الزجاج كانت منزوعة إلا أنه أصرّ على فتحها لي.

أخرى، بينها بائع خمور ونبيذ وشمبانيا وشيبس برنجلز الأحمر البراق. مساكن فوسكا، مَجمَع الشقق المُقبضة التى أخطأتُ فيها بزيارتى الأخيرة، تصخَبُ الآن بالمحلات، مع كشك لتصليح المحافظ والحقائب. سرتُ فى هذه المتاهة المعتمة الصغيرة حتى وصلت محل "كلّه بدولار"، لا بالطريقة الكوبية القديمة بل كالمعهود فى ميامي: مجرد ثُقب بالحائط يبيع كلّ شيء من أرخص التوافه بدولار واحد. والأكثر غرابة هو صفّ المنتظرين الدخول إليه.

سرتُ ذلك المساء إلى ناسونال لتناول شراب وتدوين مذكرات. جلستُ خارجه بشرفة تطلّ على البحر. حاول النادل إرغامى على تناول موجيتو، لكنى طلبتُ كأس نبيذ أبيض. جلستُ أشربه، يهدهدنى النسيم وجمال الفندق البسيط والخضرة والناس؛ وحين انتهيتُ طلبت كأساً أخرى. وأدهشتُ نفسى بطلب ثالثة. ضربنى النبيذ بشدة فظللتُ هناك حتى أظلمت الدنيا، أحاول لَمّ شتات نفسى.

★★★

نمتُ على تقطّع، ولمتُ نفسى على النبيذ. أصحو أحياناً فى الليل من سماع الريح وهى تُطبق بعنف. وحين أفتح الستائر أرى المشهد صافياً؛ ونور القمر منعكس بصفاء على الماء. فأعود إلى فِراشى قلقة. يبدو أن توقعاتى عن الرحلة خاطئة، والمهمة أمامى مستحيلة.

وجدنى الصبح فى حالة أحسن، رغم أنى امتلأتُ بكآبة أن شيئاً مفزعاً سيحدث. على الإفطار، حيّانى قالى البيض بالإسبانية، فاتّخذتُ طاولة فى الركن الأبعد لتفادى تحديقه. وصمّمتُ ذلك اليوم على طرق الأبواب. فكّرتُ فى البداية أن أتنزّه لاستجماع شجاعتى. فخرجتُ من الفندق إلى شارع ٢٥، قرّرتُ السير بعيداً عن البحر. مررتُ بكنيسة، أنعمت النظر فأدركتُ أنه يوم أحد ومقاصير الكنيسة تمتلئ بالعابدين. ثم واصلتُ. درتُ إلى ركن،

ننال طعاماً كافياً للعشاء. أضافَت بعد دقيقة: وحتى هذا ضجر. وعلى هذه الوتيرة ظلّت ملاحظات جودى جارحة أكثر وأكثر فبدأتُ أشكّ فى أنها تمنحنى صورة بالكربون مما توقعتُ سماعه، عدا طريقتها فى الكرم ولفت انتباهى. فقرّرتُ أن أفكارها الحقيقية خاصة وغير معروفة.

تتكلّم وأنا هادئة، لا أستطيع التصريح بكلمة، فأركّز على كمية الطعام التى تضعها بحميّة معاً فوق موقدها الصغير. وتدريجياً وهى تتكلّم، تنتهى أصناف جديدة، تسلّمها ابنها من دون أن يتردّد سردها لحظة واحدة. مدّ الولد الصحون على الطاولة المخلّعة فازدحمَت بالسلطة والأرز والفاصوليا السوداء والفجل والبنجر المطهوّ بطيئاً.

صارت على الغداء أكثر جديّة، كأن حكايتها تحتمل التباطؤ حتى انتهت من طبخها المجنون. قالت إنها تفتّش عن فرصة للرحيل، مع أنها ليست من الغباء لتلقى الطفل البائس البرىء فى البحر. شكرت الله وأردفَت جودى: راحت تجارة القوارب الآن. ويتنبّه الكوبى أحياناً فيجد الأمر شبيهاً بحمّى مفاجئة توجب على الجميع الخروج. نوع من الرعب، كما يصرخ المرء يوماً من حريقٍ بمبنى. قالت: فكّرتُ فى أزمة القوارب أن يتركونى وحدى فى هافانا. مررتُ ذات صباح بتمثال مارْتى فى الحديقة العامة، تعرفين ماذا فعل به، هؤلاء الكوبيون؟ وضحكَت جودي. علّق أحدهم بذراعه الممتدّة حقيبة سفر كبيرة.

★★★

غادرتُ جودى والولد بتمنّى أن أعود، مع أننا نعرف جميعاً أنى لن أفعلها. ابتعدتُ عن البناية، فتساءلتُ كم سقط من السياح فى فخّ لعبتهم المبهجة.

وجدتُ طريق العودة إلى الفندق بسؤال الناس لتحديد الاتجاه (نظام طوّرتُه مع الناس بعدما بدوتُ لا أعرف ما تعنيه هافانا ليبر) إلى أن رأيتُ

وقفتُ أسفل سلّم متّسخ، والولد يتسابق أمامى فعلاً. أنهكنى السير فى كلّ مكان بالبلدة فاستغرق منى الصعود دقائق طويلة، وحين توجّهتُ إلى الشقّة اعتذرَت أمّ الولد قائلة إن هذا السلّم يتعب الجميع، لكنها وابنها اعتادا عليه. قالت المرأة: يتأقلم المرء فى النهاية مع كلّ شيء تقريباً فيكفّ عن الشكوى. ضحكَت وهى تتفحّصنى ثم أضافت: هذا سبب أن البلد محلّك سر.

تبعتُ المرأة والولد داخل الشقة. مجرد غرفتين يفصلهما موقد غاز، لكنها مرتّبة براقة. أجلستنى المرأة على كنبة وجلبت لى قهوة، وكانت تتكلّم بسرعة فصعُب عليّ متابعتها. لم تعتذر أن ابنها جرّنى لشراء هذا الطعام، شكرتنى بإسراف فتصوّرتها وابنها الساحر يقومان بعملية خداع جيدة، ولإتقان التنفيذ كانت الحجّة أن الضحية زائر كريم وصل على موعد الغداء.

قدّمت المرأة نفسها باسم جودي، تطبخ بحماس على الموقد الصغير وهى تتكلّم. قالت: انسَى التعليم ونوعيته والرعاية الصحية، فبدون الدولار أنت فى عداد الموتى بهذا البلد. مما يعنى أن تدفنى نفسك بمقبرة استعمارية إن لم تكن لك عائلة فى ميامي، إن لم تعرفى أحداً بمافيا ميامى المضادة للثورة. وكان آخر ما قالته بنبرة محاكاة عميقة لصوت كاسترو، واستكملته بإصبع مرفوعة حتى ضحكتُ. ثم واصلت جودى من دون أن تمنحنى الفرصة: يبدو أنك صاحبة مهنة. تذهبين لمكتب نهاراً، تدفعين فواتير، ترين أصحاباً. عندك أيّ فكرة عن الضجر الذى يعشّش بيننا؟ لا توجد هنا دولة بوليسية؛ مما يثيرك على الأقلّ. فلن تتبعك الشرطة أينما تروحين. لكنهم يخدّروننا بالضجر. الأيام الكوبية أطول أيام بالعالم. حتى العمل أياً كان فهو ضجر. إن اختفيت ثلاثة أشهر فلن يلحظ أحد. وكلّ هذه النوادى والمحلات الجديدة، هل تظنين الكوبيّ يتحمّل أسعارها؟ وتأوّهت عميقاً. نتسلّى بتصوّر كيف

لاحظتُ الحبل المربوط من أعلى السلّم لأسفله بقُفل الباب. رأيتُ امرأة بالأعلى مع طرف الحبل فى يدها. وكانت بكرسيّ متحرك. قالت: تأكّدى من غلق الباب وراءك.

وصلتُ إليها فأومأت تقدّم نفسَها "كاردد"، قادتنى إلى غرفة جلوس معتمة لكن مرتبة. وصدمنى التضاد مع الشقة الصغيرة التى دخلتها اليوم السابق. مع أن الشقة فى حاجة للدهان وبعض الإصلاحات، إلا أن خطوطها الرائعة مرئية من كلّ مكان. الأرضية قرميدٌ أبيض، تفسدها آثار عجلات الكرسىّ المتحرك. ويغطّى النافذةَ ستارٌ خشبيّ أنيق يحجب الغرف عن الشمس ويجعل كلّ شىء فى شبه نور ملطّف. وبينما يهطل المطر بالخارج، كتم صوته ستار النافذة.

قالت المرأة: آخر الصيف هكذا. تمطر فى أيّ وقت. اعتذرَت ثم دارت بكرسيّها نحو غرفة خلفية بالركن. قضّيتُ الدقائق القليلة أفحص الغرفة: كراسى الخيزران بظهر هزاز، دولاب كبير داكن ملمّع، خزانة مليئة بكتب فرنسية، معرض صور صغير. وأثار.الأخير اهتمامى فوراً. وعلى وشك أن أقف لأتطلّع عن كثب، عادت كاردد تحمل صينية بكوبين صغيرين من القهوة وصحن كعك رأيتُ مثله بواجهة محلّ بان باريس.

قالت: بنات أخى، وهى تتبع نظرتي. لم أقابلهن؛ يعشن فى ميامى (لأخى منزل فى كورال جيبل وآخر فى فرنسا) أظنّهم بمكان على الساحل. وضعت كاردد الصينية على طاولة أمامى، تدحرجت بكرسيها جهة المكتب فأخذت صورة. أرتنى إياها. بنت صغيرة بشَعر ذيل حصان تقف أمام ما عرفتُ فى ما بعد أنه فندق فونتنبلو فى ميامى. سألتها: تعرفين هذا الفندق؟ فهزّت كاردد رأسها. ردّت: لم أخرج من كوبا. خلّت الصورة على مقعد وركنت كرسيها أمامى.

تلبس بنطلوناً أسود واسعاً مجعّداً وبلوزة حرير حمراء بديعة تكشف عظم ترقوتها. أستطيع القول إنها صدمتني. فأظافرها، وهى تقدّم لى صحن

رأس الفندق فوق الأسطح. مضى أول لقاء بالمصادفة ساراً فشجّعنى على طرق الأبواب. لكنى عدتُ إلى الفندق بعد أكثر من ساعة، وقد انسحبت منى الشجاعة. كنتُ أيضاً مستنفَدَة. فوعدتُ نفسى البدء غداً صباحاً، أخذت المصعد إلى غرفتى ثم رحتُ فى النوم فوراً، مشبَعة سعيدة.

★★★

صحوتُ الصباح التالى مفعمةً بالطاقة، تمنّيتُ تفادى قالى البيض، فحذفتُ الفطور ومضيتُ مباشرة للعمل. اتّخذتُ دربى المعتاد من الفندق وسرتُ من جديد بشارع فيدادو. كنتُ أهيم وأنا أكلّم نفسى لأقرّر البداية فوجدتُ نفسى أمام محلّ معجّنات، بان باريس. محلّ ضيق عميق، ويشغل حائطه علب العرض الزجاجية بكلّ أصناف الطعام الفرنسيّ: "بتى فور" وردىّ وأزرق، كعك فواكه صغير، كعك ضفيرة مدوّر. انغلق الباب ورائى فحجب عنى ضجيج المدينة ورائحة الأماكن التى تُلاحقني، وتولّد عندى إحساس مفاجئ لا يريم أن الأيام السابقة حلمٌ وأنى أجلس الآن للفطور فى المقهى الصغير جنب الكونكورد. طلبتُ شراب البالمر وجلستُ إزاء الشارع، بأمل أن أُبعد عقلى عن تنافر المكان مع هذه الشوارع.

غيّمتُ السماء فجأة؛ يبدو ستمطر. بدلاً من سبّ الطقس، امتننتُ لما سيجعلنى ألجأ أخيراً إلى داخل منزل أحدهم. فغادرتُ المقهى وعبرتُ الشارع، وبعد أن رابطتُ بضع دقائق لأختار بين منزل أزرق وآخر رمادىّ، خطوتُ إلى باب ثقيل لمنزل ثالث فطرقتُ بشدّة. انتظرتُ دقائق. لم يردّ أحد. عدتُ إلى الشارع فرفعتُ بصرى: كلّ الستائر مسدلة، وبدا المنزل مهجوراً. استدرتُ فلمحتُ عين امرأة تتقبنى من شرفة عالية بمنزل عبر الشارع. لوّحتُ ثم لوّحتُ. بعد ثوان صرخَت أن أبعد عن المطر.

صحتُ عليها أشكرها، واختفَت للداخل. سرتُ إلى الباب وانتظرتُ. لحظة وانفتح الباب فدُهشتُ أن لم أجد أحداً ينتظر، مجرد سلّم منبسط. ثم

ردّت كاردد: وهبتك؟ إذن كلّمتها.

قلتُ: لا، ليس بالضبط. وبدأتُ أخبر الغريبة قصة حياتي.

وأنا أحكي توقّف المطر وهلّت علينا أصوات جديدة: عجلات على الرصيف وأولاد خرجوا من جديد للّعب في الوحل، وصلنا ضحكهم كزجاج رنّان.

سكنت كاردد فترة. قالت: مفهوم. مفهوم.

وقفتُ فشكرتُها على القهوة والكعك.

قالت: ابني في العمل الآن. لكنه يظلّ هنا طيلة نهار السبت. ألا ترجعين للعشاء.

أخبرتها هذا من لطفك، لكن حقاً ـ

قالت: إذن الثامنة مساء. سننتظرك.

★★★

سرتُ قليلاً في الحيّ، أتوقّف أحياناً تحت شرفة، أحاول تذكّر الشرفة التي ظللتُ أصعد إليها منذ سنين. وحين عدتُ إلى الفندق كان الوقت قد اقتحم العتمة. قرّرتُ الصعود مباشرة إلى غرفتي. فتحتُ التليفزيون فأجفلتُ حين تشكّلت الصورة بالشاشة فقد كانت القناة CNN تبدو الأيام الماضية كالحلم، أو سفر إلى كون بعيد، وقد أربكتني الشارة والنشرة، فعدتُ للحياة. قضّيتُ باقي الليلة أدوّن أشياء ثم رحتُ في النوم بعد الثانية صباحاً.

★★★

تناولتُ فطوري ثانية في بان باريس، سعيدة خارج الفندق. انتهيتُ بسرعة ومضيتُ مباشرة للعمل. لم تكن خطّتي الليلة السالفة، لدهشتي، صعبة التنفيذ. سأبدأ بشارع إل كخطّ فاصل، وأزور خامس منزل آخره.

الكعك، مقلّمة مطليّة بأحمر لميّع داكن يناسب بلوزتها. أخذت رشفة من القهوة وحدّقت فيّ لحظة. شكرتها على القهوة والكعك الممتاز.

قالت: كنتُ أراقبك وأنت تسيرين بالشارع طيلة اليومين السابقين. أقضى وقتاً طويلاً في الشرفة؛ الوقت الوحيد الذي أقضيه تحت ضوء الشمس. تصوّرتك تفتّشين عن عنوان، لكن لا يبدو أنك مستعجلة كما يتوقّع المرء.

مالت للوراء ترتاح بكرسيّها المتحرك كمن يتّكئ على أريكة. توقعتُ تقريباً أن أجد كأساً عالية بيدها ومبسم سيجارة طويل بالأخرى. لها طريقة واهنة فأحسستُ أني شبه منوّمة مغناطيسياً. ثم لاحظت أنها لم تتكلّم لفترة، واعتبرتُ أنها سألت سؤالاً لم أسمعه.

قلتُ: آسفة.

قالت كاردد: سألتك عما تفتّشين.

قلتُ: أفتّش عن امرأة تُدعى تريزا، ربما ألمح تغيّراً طفيفاً بتعبيراتها يدلّني عما يريد قلبي تصديقه: إنها هذه المرأة، إنها أمّي، أربكتني بسرعة وبساطة كأني محكومة بالقدَر. لكن وجهها لم يسطّر شيئاً. بل قالت: من عائلتك؟ قلتُ: أمّي. وأضفتُ: لكن لا أملك عنها أية ذكرى.

اتّكأت كاردد بكرسيّها المتحرك. قالت: مفهوم.

واصل المطر هطوله في الخارج.

سألتُها بعد لحظة: عشت بهذا الحيّ طويلاً؟

قالت: ولدتُ في هذا المنزل.

تعرفين امرأة اسمها تريزا ديلندر؟ رسّامة؟ زوجها أستاذ جامعة. كالستو. لغويّ.

أدارت كاردد عينيها للسقف برهة ثم هزّت رأسها ببطء. قالت: أعرف كلّ من مرّ بهذا الحيّ. وأخبرك دون شك أنه لم يولد أحد بهذا الاسم هنا.

قلتُ: ربما وهبتني اسماً زائفاً.

أكثر فى الأزقّة الصغيرة، أتسكّع حول المواقف المفتوحة الصغيرة، أفتّش عن صور الغرباء المصفرّة.

مرة رحتُ فى النوم، وحين صحوتُ كانت النافذة معتمة؛ فنهضتُ. عليّ أشياء سأفعلها. تذكّرتُ العشاء بمنزل كاردد. لم أتيقّن أن أجد بيتها بسهولة. فتّشتُ أوراقى بعصبية بحثاً عن عنوان فلم أجد. تحمّمتُ ولبستُ بسرعة فجريتُ إلى الباب. توقّعتُ العثور على بان باريس فى البداية وسأتذكّر بعدها. لكن مجرد أن درتُ إلى شارع سمعتُ من ينادى اسمى فرفعتُ بصرى لأجد شاباً يقف فى شرفة، ويلوّح لى.

فُتح الباب من جديد كأنه من شبح، صعدت السلّم المعتم إلى منزل كاردد. غرفة الطعام مضاءة مشرقة، وأعادت لى رائحة الطبخ فكرة البيت التى دفنتُها طيلة سنوات السفر تقريباً. حيانى الشاب بقُبلة على الخدّ كأصحاب قدامى. مهذّب مرح، ولاحظتُ أنه وسيم جداً؛ أخبرنى أن أمّه بالخارج لوقت قصير فوجدتُ نفسى ضائعة فيما أقوله بالمقابل. أجلسنى واختفى فى المطبخ؛ عاد بكأسين وزجاجة نبيذ فرنسية. قال: خالى اشترى منه صندوقاً آخر مرة كان هنا، لكن أنا وأمى لا نقدّر النبيذ، فهو عندنا منذ أكثر من عام.

نبيذ لذيذ. بعد لحظات وجدتُ نفسى أمدّ كأسى طلباً للمزيد. ثم جاءت كاردد بكرسيّها المتحرك، تجرّ رائحة خُزامى، وتصعد حذرة بينما يبتسم ابنها عند رؤيتها. فى حضوره بدت كاردد أصغر وأسعد. ولم يمرّ وقت طويل حتى كنتُ أضحك معهما وأتبادل انطباعاتى عن المدينة. أحسستُ (بوهم شائع عندى كسائحة أبدية) أنى أعرفهما من زمن.

ثم أعلنت كاردد أن العشاء جاهز. للمنزل غرفة طعام رسمية لم أرها بزيارتى الأولى. وكان غريباً حين سرتُ إليها أن وجدتُ امرأة سوداء شابة تعدّ المائدة. تلبس ملابس لائقة، فستان أخضر حرير دون كمّين. لم ترفع بصرها حين دخلنا، فتيقّنتُ بعد وهلة أنها ليست حزينة بل منغمسة فى

وآخذ اليوم التالى الشوارع الأقرب، فأفعل الشيء نفسه. أما اليوم فسأغامر لمساكن أول إل. ثم أعبر شارع ٢٣ وأفعل الشيء نفسه مع ما حول فوسكا.

طمأنتنى الخطّة الجديدة؛ بدت علميّة تقريباً، وتطلّعتُ فعلاً للمهمة التى وقفتُ عليها نفسى. أول منزل طرقته كان من دورين، بنياً قليلاً. طرقتُ الباب طويلاً ثم ابتعدتُ، وحين أقلقتنى هذه البداية غير المبشّرة، فُتح الباب.

وقفَت فى الداخل امرأة شابة تمسك خرقة غسل الصحون بيدها. نافدة الصبر. وحين أخبرتُها أنى أفتّش عن امرأة فنانة تُدعى تريزا ديلندر، قطعت عليّ الطريق: انتقلتُ هنا من شهر. فأنا من جنيس ولا أعرف أحداً؛ آسفة. منحتنى ابتسامة محدودة وهى تغلق الباب. دُهشت. هكذا اعتدتُ فى زياراتى السابقة؛ المعاملة نفسها التى أتوقّعها من أيّ مكان فى العالم. أنا نفسى لن أدعو غريباً إلى منزلي. لقد أبعدتنى ضيافة جودى وكاردد عن توقّعاتى الأصلية.

مع ذلك كان لهذا الرفض تأثير غريب، فقد حفزنى أن أواصل: تصوّرتُ كلّ رفض يقرّبنى من تريزا. فسرتُ فى الشوارع، أحسب كلّ خامس منزل. قضّيتُ اليوم الأول داخل منزل واحد يرشح برائحة البول. فالعجوز التى ردّت على الباب وسمحت لى بالدخول كانت مغمورة بأولاد تحت رعايتها فعذرتُ نفسى بعد دقائق، تفهّمتُ أنها جوعانة إلى رفقة بالغين.

وهكذا أمضيتُ باقى الأسبوع، أطرق أبواباً من كلّ نوع، أصعد سلالم إلى شقق متّسخة، أتجول فى مداخل، أسأل كلّ أحد وأىّ أحد: تعرف تريزا ديلندر، رسّامة، زوجها أستاذ، طفلة؟ وفى نهاية الأسبوع تعبتُ من السير والطرْق المتواني؛ وراح إجهادى إلى عمق يأس نامٍ؛ علىّ أن أغُذّ السير فى شوارع هافانا البديعة المتّسخة، فيها كلّ عفن منمّق، كلّ نسخة دمار، كعليل بمرض منظور لا تستطيع حجب بصرك عنه. زرتُ منزلين صباح السبت وقضّيتُ باقى الظهيرة على ظهرى بفِراش غرفتى فى فندق هافانا ليبر، أراقب السحب تنجرف عبر النافذة المفتوحة. أنزع أوراق مفكّرتى فأحدّق

تطلّعت فى ابنها ثم واصلت: وهكذا أعيش بالأعلى هنا، مدلاة فوق الأرض، طافية. عندى مَن أتصل بهم وقت اللزوم. مرة نسى صبىّ التوصيل، رغم نداءاتى الكثيرة، أن يغلق الباب خلفه وهو يخرج. فالنظام الذى وضعه ماني، كما ترين، لا يُغلق الباب، يفتحه فقط. فهُرعت إلى الشرفة صارخةً عليه، لكنه لم يسمع أو أنكر أنه سمع. ناديتُ صاحبتى فجاءت وأغلقت الباب. وأردفت: بعد شهر حملنى مانى فى كرسيى المتحرك وذهبنا إلى كوبيلا. أخذنى فى جولة صغيرة على الحىّ، للتذكرة. أرى الأماكن القديمة كلّ شهر، محل جديد يفلس أو بناية أخرى تتداعى. قالت: أمر ممتع. لكنى لا أبقى طويلاً؛ فاندفاع الناس ورائحة الإجهاد والعربات القريبة المجنونة... لا، العالم أفضل من أعلى هنا.

هدأت فترة، وانتهينا من حلوياتنا صامتين. لم يكلّم المرأة السوداء أحد، فدرتُ أسألها إن كانت تعيش هنا بالحيّ. فتبادلت النظرات مع كاردد وابتسمت قبل رفع صحون الحلويات والاختفاء فى المطبخ. لم أرها ثانية.

تبعت كاردد ومانى إلى غرفة المعيشة، حيث تناولنا قهوتنا وحكيتُ المزيد عن تريزا. وقد ذكّر كلامى عن الماضى كاندد بالقليل عما تدعوه "ذلك الزمن"، فالحنين ليس مقاطعة مثيرة للمنفيين؛ وقد تكون منفياً من دون أن ترحل، قد تكون منفياً عن الزمن، كما يقال.

أخبرت كاندد أن صديقة من ميامى ذكرت جاتو ترتو، وسألتها ألا تزال هناك. ظلّت كاندد زمناً وعيناها مغمضتان، ثم قالت: جاتو ترتو (كان آخر الخمسينيات وأول الستينيات) حيث تقدم ميريام اكفيدو عروضاً وهى تلبس الأسود. أما بالسبعينيات، وأنا أستطيع السير على هواي، فكنتُ أسمع برتلو ديلوز وإلينا بوركي. فتحت كاردد عينَيها تتطلّع فيّ. قالت: لا تعنى لكِ هذه الأسماء شيئاً الآن. وواصلت بعد برهة: أمرٌ غريب... عبر السنين، أن يصل المكان إلى نقطة الانهيار. ردّ ماني: لكن أُعيد ترميمه. فقالت: أشكّ أنه هو. لو كنتُ مكانك فلن أروح هناك. ودارت إلى ابنها تسأله أن يحضر لها ألبوم صور من درج الخزانة فى غرفة نومها.

مَهمّتها. كلّ فوطة مائدة طويت بخبرة على صحنها العاجيّ الباهت. والأكواب صُفّت قائمة، طقم فضيّ ملمّع. لم يكلّمها أحد، ثم اختفت بالمطبخ. مدّت كاردد ذراعها نحو كرسيّ لأجلس. علمتُ أن ابنها مانى يعمل مرشداً سياحياً لفندق ناسونال. عرض عليّ جولة فى فيدادو، فقد بدا أنى مهتمّة بالحيّ. قال ماني: إنه أحد المناطق الحديثة فى هافانا. يمكنك رؤية تاريخ المدينة باهتمام جمعيّ يتجاوز الماضي، من مركز المدينة القديم إلى فيبورا حتى الضواحى الحالمة فى ميرامار. كنتُ أراقبه وهو يتكلّم من ركن عينى، بينما تجلب المرأة السوداء صحن طعام بعد صحن بمنتصف المائدة على الغطاء النايلون. أرز أبيض، فاصوليا سوداء، صحن جمبرى كبير، سلطة بطاطس، صحن سرطان بحريّ بالزبد والبقدونس، صحن دجاج مطهوّ على البطيء. اتّكأتُ بكرسيى فانغمستُ فى الطعام لا أنصت لما يجرى من حوار. جلبت المرأة صحنين إضافيين بالسلطة، وبعد ترتيبها جميعاً والانحناء طفيفاً جلست جنبى إلى المائدة، رفعَت بصحة ضيفتنا فقرعنا الكؤوس. انتظرتُ أن يقدّمنى أحدهم، وحين طال انتظارى قدّمت نفسى للمرأة، فحدستُ أنها ليست خادمة بل من العائلة. أومأت المرأة، ثم استأنفت تناول الطعام من دون كلام. لم تتبادل معها كاردد ولا ابنها حواراً. خدعنى الموقف بفضوله، وترقّبتُ طيلة المساء السؤال عنه فلم أجد اللحظة المناسبة.

وقفت المرأة السوداء بعد العشاء، رفعت صحون الجميع واختفت فى المطبخ. ثم عادت إلى الصحون الكبيرة، وكان معظمها ممتلئاً بالطعام. بعد برهة عادت من المطبخ بصحن فواكه محفوظة من إنجلترا، فوضعته على المائدة. ونحن نتناول الحلويات أخبرتنى كاردد أنها فى الكرسىّ المتحرك منذ ١٩٨٥ ولم يجد الأطباء علة فقدانها فجأة الحسّ بساقَيها. قالت: مرضتُ أياماً بحمّى فظيعة، وبدأتُ تدريجياً أفقد حسّى بجسمي. كأنى أطفو. قال الأطباء إنه تأثير شائع للدواء. لكن حين تحسّنتُ أخيراً اكتشفتُ أنى لا أستطيع تحريكَ ساقَىّ.

جبينه وسحبتُ نفسى منه بهدوء، وتأكدتُ من إغلاق الباب حين وصلتُ قاع السلّم.

★★★

تقاديتُ فى ما بعد حيّ كاردد، ركّزتُ على شوارع الغرب والشمال. ثم قرّرتُ أن أرسل كعكة من بان باريس لمنزلهما تعبيراً عن الامتنان. ولم أرهما ثانية.

قبل ثلاثة أيام تجهّزتُ للرحيل، فلم أعثر على أثر من تريزا. كنتُ حمقاء أن صدّقتُ أنى سأُنجز برحلة واحدة ما يمكن إنجازه فى عشر سنوات من الزيارات.

قرب نهاية الأسبوع صحوتُ باكراً فأدركت أنى لن أتحمّل حواراً آخر مع الغرباء. فميل الكوبيّ للكلام عن كلّ شىء عدا ما بين يديه من موضوع قد برانى إلى عُقبِ قلمِ رصاص. أفهمه على أنه نوع من العدوانية، عدوانية خاصة فطرية لناس يحسّون ألاّ سلاح لديهم يخلّصهم غير دفع امرئ ببطء نحو الجنون بمناجيات لا نهائية، بنبرات محزونة وإصبع معنّفة مرفوعة.

تذكّرت مرسم الحفر الذى دلّتنى عليه إلينا، فأخذتُ سيارة أُجرة إلى الكاتدرائية. وجدتُ المرسم بسهولة، فى نهاية حارة ضيقة. دخلته من دون أن يوقفنى أحد أو يسألنى إن كنتُ أحتاج شيئاً، فقضيتُ أفضل ساعة وأنا أتجول وحدى فى الغرفة الشاسعة.

اقترب رجل فعرّفنى باسمه، أخبرته: أرسلتنى إلينا. قادنى مدير المكان (أخطأتُ بمناداته صاحبه، فضحك) نحو مكتبه فى الدور الأعلى. سألته إن كان لديه شيء لفنانة تُدعى تريزا ديلندر. فزمّ شفتيه يفكّر وهلةً، قال: لا. لا أظننى سمعتُ بهذا الاسم. فنانة شابة؟ قلتُ: لا، من الخمسينيات. آسف يا حبي، لا نملك الكثير من هذا الزمن. وابتسم. الفنانون عندنا (وفتح يديه) من

لم يعُد بشيء يوحي أنه ألبوم، بل كيس بلاستيك مليء بصور أبيض وأسود. فطفر قلبي قليلاً. أخذت كاردد الكيس ثم شدّت صورة شابة جميلة تلبس روباً أسود وفستاناً طويلاً بالترتر. أخذت تتطلّع فيه ثم ناولتني إياه دون تعليق. أمضينا الساعة التالية أو نحوها هكذا حتى تماهى الظلّ بوجه كاردد ملتبساً فجمّعت صورها ثم دارت بكرسيها المتحرك إلى غرفة نومها، نادت على ماني ليساعدها أن تنام. وقفتُ متعجّلة للوداع، لكن ماني وضع يداً على كتفي طالباً أن أتمهّل. وهو ما فعلتُ. أغلق ماني باب غرفة والدته. مضى إلى الخزانة الكبيرة المعتمة فشدّ زجاجة براندي وملأ كأسين صغيرتَين سلّمني إحداهما. قال: هي دائماً هكذا. لا يتعلّق الأمر بأحد أو شيء. نال رشفة براندي ثم قال: تعالي - أريد أن أريك شيئاً. قادني نحو غرفة صغيرة خارج غرفة الطعام فيها أريكة وطاولة صغيرة، وصُدمتُ لرؤية تليفزيون بشاشة واسعة أعلاه صحن هوائيّ. صحن هوائيّ داخل غرفة متّصل بنافذة عالية. قال ملاحقاً نظرتي: أمر ضدّ القانون؛ فلهذا أضعه بالداخل. ابتسم ماني وشغّل الجهاز. قال: عندي حوالي ٢٠٠ قناة، مع أني لم أعدّها أبداً. ستعشقين الرياضة بالولايات المتحدة، فلم أر مثل هذه القنوات. عندي كلّ شيء: أفلام فرنسية، استعراضات إيطالية. وتعرفين ما يودّ أصحابي أن يروه حين يجيئون. رفعت حاجبَيّ مستفهمة. فارتاح بالأريكة ولمس جهاز التحكم. قال: CNN، ثم ضحك.

جلست مع ماني إلى آخر الليل، شاهدنا CNN أولاً ثم أخبار دولسي فيتا. مال رأسي على كتفه، وربما نمتُ. ثم صحوتُ قرب الصبح، وقد أغلق التليفزيون ونام أيضاً. ارتعبتُ قليلاً ثم ابتعدتُ عنه بحذر شديد. ولأنه نائم أخذتُ أنظر إليه عن قرب: شَعر داكن معقوص، عظام خدّين رائعين، شفتان داكنتان ممتلئتان. كنتُ أحتاج شخصاً يثيرني، لأحسّ بالسموّ الذي وصفته تريزا. ومرة أخرى زاغ مني. فقد أنهكني الليل، بجدرانه المسطّحة، بالبلى المنهار (رغم جهود كاردد الباسلة) من كل جانب. قبّلت ماني خفيفاً على

قالت: ألست تسألين عن بياتريس. لكن اسم أمى ماتيلد. وتفتّشين عن تريزا ديلندر، لكن أمى تعمل عند امرأة تُدعى دى لا كيفا. أظنّ هى التى تفتّشين عنها.

ولماذا تظنّين أنها هى؟

مدّت المرأة يدها إلى محفظتها فجذبت ورقة مُجعّدة. سلّمتنى إياها. قالت: دى لا كيفا أعطتها لأمّى منذ سنين.

فَضَضتُ الورقة. كانت قصيدة نيرودا مسطّرة فى عناية بخطّ اليد، ورغم اهترائها فى أجزاء ظننتُ - أو أردتُ الظنّ - أن الكتابة مألوفة.

رفعتُ حاجبَىّ. قلتُ: لقد ذكرتُ القصيدة لعددٍ من الناس، وأنا أحاول الحفاظَ على صوتى مستوياً ثابتاً. ليس من السهل إعادة استنساخها.

تصبح الشابة أكثر هشاشة كلما أصبح أكثر ثقة، ولم يمض زمن حتى بدأتُ أحسّ بوخز الخطيئة. ليس سهلاً أن أكون حمقاء. لم تفُت عليّ المصادفة البعيدة. فأنا أزور هذا البلد منذ سنين، أسير فى الشوارع بكدّ أكثر من هذه المرة ولا أجنى شيئاً. فلماذا الآن؟ وما الفرص؟ لا يتغيّر العالم كثيراً بالسنين الطارئة، لكن هافانا تغيّرت. فالناس يائسون كما لم يألفوا. لم يُغرهم توليف كذبة مدروسة؟ سألعن نفسى لتشوّش معلوماتي، ثم على إخفاقى بتسجيل تفاصيل تفاعلاتى.

بدت الشابة أصغر وأكثر شحوباً مع كلّ ثانية تمرّ. فتصارعَت فيّ أفكارٌ وانفعالات. ملتُ للوراء وصمتّ.

قالت الشابة: قد تساعدكِ أمّى. ما ضير إن حاولتِ؟ ما ضير إن وثقتِ؟

★★★

قضيتُ الصباح التالى أرتّب للعودة إلى ميامى. قرّرتُ الرحيل أبكر يوماً مما خطّطتُ، لكن تغيير المواعيد صعب. محبطة غاضبة متعبة، ومتحرّرة من وهم المدينة، انهرتُ فى الفِراش لدى منتصف الصباح. فتحتُ التليفزيون

عصر مختلف. ضحكتُ، وخشيةَ أن أكونَ وقحةً سألته هل يمانع أن يتجول معى قليلاً بمعرضه الشاسع. انتهى الأمر بشراء لوحتين: للفنان بوناكيا والفنان خوسيه عمر، أعلّقهما فى منزلى الآن.

عدتُ بسيارة أجرة إلى الفندق مع لوحتَىّ. الوقت متأخّر وحشود المساء تتجمّع: حمّالون وضيعون من ألمانيا، عجائز إسبانيا المداهنون، مومسات جميلات. دفعتُ للسائق فصَلّبَ يديه على صدره قائلاً: أين تروحين غداً، سآتى لأنتظرك. أنتظرك باقى عمرى. ومفتونة أو ثملة قليلاً من أثر المدينة على أحاسيسى ببطء، قبّلته خفيفاً فى خدّه. جمَّعتُ أغراضى واتّخذتُ طريقى إلى المدخل. وقبل وصولى اعترضَت طريقى امرأةٌ شابة. لم يراودنى أحد من قبل هكذا، فأدرت وجهى وواصلتُ حتى همَسَت: أنتِ التى تفتّش عن تريزا ديلندر؟ سكنتُ وارتجفت يداى على اللّوحتين. سألتها من هى. ردّت: تعالى معى. فترددّتُ. كلّ رحلة إلى هافانا رقصةٌ بين رغبتى فى الإيمان بخير الناس وحماية نفسى من الفصام الذى يُسمّم أىّ تفاعل. بعد التمعّن لحظة، قلتُ: لا، تعالى أنتِ معى. أشرتُ أن تتبعنى عبر أبواب الفندق الزجاجية. تردّد البواب الذى فتح لنا ثم غمز لحارس الأمن بالداخل. فاندفع يسألنى فى أدب شديد بالإسبانية إن كنا نقيم بالفندق. فبلّغته بالإنجليزية إننا نقيم فعلاً. سمح لنا. جلستُ مع المرأة فى بار الردهة، وطلبتُ لنا كأسَى موجيتو.

منحتنى المواجهة القصيرة مع حارس الأمن ثقةً جديدة، فاستطعتُ إخفاء رجفتى وسألتُ الشابة عمّا تريد.

قالت: أنا ابنة المرأة التى تعمل عند المرأة التى أظنكِ تفتّشين عنها.

ظللتُ سلبيةً. قلتُ: نعم؟

أشارت العجوز نحو نافذة فى بناية قديمة خَرِبة. هناك حيث تعمل. أخبرتك عن مرسمها.

سألتُ: ولا تزال هناك؟

فابتسمَت العجوز. قالت: طبعاً، هناك.

بدأت العجوز سيرَها إلى البناية بخطوات عمليّة. لكنى تلبّثتُ فى الشارع. لقد جئتُ من كلّ هذا البعد؛ وقضّيتُ أسبوعين فى هافانا الجديدة دون أن يحاول أحد طعنى بسكّين، دون أن أقع فريسةً لخداعٍ عدا عشاء عابر مع جودي. وماذا الآن؟ ماذا لو صعدتُ السلّم وراء هذه العجوز الهشّة، المختارَة بعناية لهشاشتها، غير أنه الشكّ؟ ماذا لو كانت تنتظرنى عصابة أجلاف؟ دارت العجوز إلى الباب. لكنى وقفتُ وسط الشارع، وكانت العجوز تراقبنى.

قالت: ثقى بى. ليس عندى سببٌ للكذب عليك.

لو أراد أحد نهبى فعلاً فسيفعل ذلك حيث أقف، والشارع هادئ مهجور. ماذا لو كانت أمّى... يا إلهى - أمّى؛ أقول الكلمات وحدى... ماذا لو كانت تنتظرنى بالدور العلويّ أمّي؟ ولماذا لم تنزل؟ فى كرسىٍّ متحرك؟ هى كاردد؟ اختلطَت فى عقلى الأفكار، واشتقتُ الهروبَ من نفسى، من زعزعتى وحذرى.

وعيتُ حركاتى أخيراً بحذر - حين أسترجع ذلك اليوم أبدو نصف مشلولة بأشواقى - فاتّخذتُ خطوة ثم أخرى حتى وصلتُ البابَ حيث تقفُ العجوز. صعدنا معاً السلّم. وكنتُ هذه المرة أنتظر رفيقتى، بدا الصعود لا نهائياً. درنا بزاوية ثم أخرى إلى مداخل معتمة مليئة بروائح الطبخ حتى وقفنا أمام باب. تلمّسَت العجوزُ المفتاحَ، لكن الباب لم يُفتَح. جرّبَت مفاتيح أخرى، لكن الباب لم يُفتَح، فى عناد. دقّت عليه بخفّة. هناك صمت، ثم صوتٌ واهن لخطواتِ أقدامٍ على الجهة الأخرى. انتفضَ قلبي. فُتح الباب فوقفَت أمامنا

وقلّبتُ القنوات. استنفدتُ ارتباكاتى أخيراً، فتوصّلتُ إلى جيبى وأمسكت بإصبعى الورقة التى خطّت بها الشابة عنوان أمها.

فى الظهيرة بعد الغداء بالفندق، أخذتُ سيارة أجرةً إلى البلدة. السائق عجوز كريه الطالع يصرّ أن يعرّج بى على المطعم الفرنسيّ للغداء. ستأكلين جيداً هناك. وسط البلد للسياح فقط، لا كوبيين فيه. بعد دقائق فقدتُ أعصابى فصرختُ فى السائق أن يفعل ما يؤمَر. انفجار غريب علىّ، فتندّمتُ فوراً، خاصة وقد نجح العجوز كريه الطالع أن يحول نفسَه إلى مخلوق جريح تومض عيناه كلّ حين وآخر بخوف وعاطفة فى المرآة الخلفية. حين استدلّ أخيراً على العنوان منحته بقشيشاً ٥٠ سنتاً. أخذ الفلوس بتعبير الجريح نفسِه ثم أسرع من دون كلمة.

وجدتُ نفسى فى منتصف شارع ضيّق فظننته حارة، وخشيتُ أن يكون كريه الطالع قد أسقطنى بزاوية من المدينة تحتفى بالجريمة عقاباً على عجرفتى الأمريكية.

ومجرّد أن أوشكتُ على السير نحو رائحة البحر، أوقفتنى امرأة عجوز. سمراء مجعّدة محنيّة، لم ألحظها حتى شدّت جونلتى.

أنت التى تفتّش عن تريزا دى لا كيفا؟

تريزا ديلندر.

نعم، ذلك ما اختارته لتسمّى نفسها عندك. لا تريدكِ أن تأتى لتفتّشى عنها.

قلتُ: أين هي؟

حدّقت بى العجوز عن قرب، فذكّرتنى بتفحّص د. كربالو المتوتّر فى وجهى. قالت بعد لحظة: آه، طبعاً.

ردّدتُ: أين هى؟

وظلّت العجوز هادئة. نظرتُ عبر الشقة. العفن زاحف على الحوائط. السقف مرقّش هنا وهناك ببقع الماء، مقشَّرٌ بأجزاءٍ، كاشفاً عروقَ الخشب. للمكان حسّ المرض والموت. ولو لم توجد اللّوحات لفررتُ، مفعمة بقلق غريب.

أخذَت العجوزُ يدى. قالت أخيراً: كانت تشتغل هنا منذ سنين.

أين هى؟

واصلَت العجوز، وهى تتجاهلُني. بعد موت زوجها، ظلّت بالمكان. وشقّ عليها آخر السبعينيات الحصولُ على المواد. رحل معظم أصحابها إلى ميامى. أخبرتنى أنها لم تكن تشتغل بغرض اللّوحات بل لرائحة الزيوت، فهى تجرفها إلى أزمنة أسعد. وظلّت تشتغل حتى عزّت الزيوتُ فتحولّت إلى الفحم. لكنِ الورق شحّ عندئذ. وكنت أراقبُ أمكِ وهى عاجزةٌ عن التلوين، جُنَّت أمام عينَىّ.

توقّفت العجوز عند ذكر أمى فنظرَت إليّ برهةً قبل أن تواصل.

وصلوا طالبين زوجَها، بعد معركةِ خليج الخنازير. داروا على الجميع.

قُبضَ عليه؟

زمّت العجوز شفتَيها وهى تومئ طفيفاً.

قلتُ: لا أفهم. أخبرَتنى أنه سافر إلى إسبانيا.

أخبرتك؟ متى؟ برسائلها؟

قالت: كان بإسبانيا حين ولدتُ.

حدّقَت بى العجوز ثم ارتجفَت. قالت: لا أعرف. إن كانت أخبرتكِ... لا أعرف السبب... هدأت لحظة. ثم بدأت ثانية: ما فهمته أن كارلوس كتبَ شيئاً ـ لا أعرف.

كالستو؟

كارلوس. كالستو، كان يستخدم الاسمَين. واصلَت: كتبَ شيئاً فى صحيفة إسبانية، يخصّ السلطةَ. أخذته أمكِ بجدية. بعده كانت تسير إلى

المرأة التى صادفَتنى بالفندق الليلة السابقة. تمسك بين ذراعيها طرداً كبيراً ملفوفاً بورق أبيض. ابتسمَت من غير كلام ثم شقّت طريقها ومضَت.

سألتنى العجوز أن أتبعها إلى الداخل.

الشقّة مجرد غرفة بحمّام، تبدو مرئية بستارة ممزّقة من أحد الأركان. هناك سخّان كهربىّ بسيط. وعلى الحوائط مسندةٌ، لوحةٌ خلفَ لوحةٍ. كلّمتنى العجوز، لكن لم أسمع ما قالت. بدأتُ أتمهّل إلى الحوائط. فاللوحات مكوّمة أحياناً ثلاثاً أو أربعاً بعضها فوق بعض، وكثير منها تقشّر عن إطاره. عدتُ أنظر إلى المرأة، وقد أومأت. ربضتُ أمام اللوحات أفحصها بعناية. لا يزال بعضٌ من حياةٍ، برتقالة، كوبان من لونٍ، طبقاتٌ بعضها فوق بعض. وقفتُ قرب الركن عند لوحة "من نافذتى" وحين شددتُها للأمام رأيتها واحدة من مجموعة. الأولى منظر نهارى من نافذة فناء، بألوان بيضاء غالباً ورمادية، عدا إطار النافذة بالركن الأيسر البعيد فهو أحمر. الثانية منظر ظهيرة: ظلّ داكن يميل على بنايات حائلة اللون. ثم المشهد نفسه بأزرق أول الليل، وقد صار إطار النافذة الأحمر لطخةً أدكن. اللوحة الأخيرة سوداء عدا انعكاس لمبة على النافذة وخلف البنايات الداكنة. نظرتُ إلى اللّوحة الأخيرة زمناً قبل أن ألمحَ فى الركن الأيمن البعيد صورةَ امرأة، بوجهٍ ملتفتٍ طفيفاً، ملامحها ملطّخة بمرآة غائمٍ زجاجُها. تتقطّع أنفاسي، فأتحرك أقربَ، لكن الوجه يفقد تحديده وكل ما أميّزه هو ضربات لونٍ دقيقة. وقفتُ أنظر من اللوحة إلى المرأة العجوز.

قلتُ: أين هى؟ وصوتى همس تقريباً.

وقفت جنبى العجوز برهة فى صمت، ثم سارت إلى الأريكة البالية فجلسَت. ربّتَت على مقعدٍ جنبَها. تواجه الأريكة نافذة الشقّة الوحيدة، وحين ارتحتُ فيها ألفتُ المشهدَ من اللوحات. سألتُ: أهكذا وجهها؟ أين هى؟

شربتُ قهوتى. تسرّبَت من الحوائط أصواتٌ: بكاء وليد، سعلة رجل، غناء واهن.

أردفت: كانت فترات عصيبةً على معظمنا. لكن أمك؛ كانت تعيش فى بلادها المتخيّلة، الجنّة الموعودة لنا جميعاً. فلم تسمع بنقص المواد أو الحرمان. فهى تصحو مبكراً، تطوى مرتبتَها وتبدأ الرسم. كنتُ أحسُدها. تترك لى وابنتى مؤونة البحث عما نأكله. قالتها العجوز من دون مرارة. لكن بصوت أنعم.

سألتُ: وأين هى الآن؟

لم تردّ المرأة. التقطَت كوبى وراحت تغسله فى حوض الحمّام.

حين عادت سألتها: أنت تريزا؟

فابتسمَت وهى تنظر فى يديها. أرسمُ أحياناً؛ أحاول. كان يأتى لزيارة أمّك زوجان إسبانيان كلّ عام، يجلبان لها ألواناً مائية. وقد تركَت وراءها ثلاثَ علب.

قلتُ: تركت وراءها.

سكتت العجوز قبل أن تواصل.

قالت: منذ عام تقريباً، شرعَت تريزا فى الكتابة، بضع ساعات أحياناً. سألتها مرات عما تكتبُ، وحاولتُ النظر فى ما تكتبُ. لكنها غضبَت منى. أعرف الآن أنها كتبَت هذه الرسالة، أو هذه الرسائل، إليك. استغرقَت عدّة أشهر لتنهيها. لا أعرف كيف بعثتها إليك، فلم تكلّمنى عنها، لكنى أظنّ أن الزوجَين الإسبانيّين تكفّلا بالأمر.

استمرّت: فى الأشهر التى ظلّت تكتب فيها، اكتشفتُ بعضاً من حزنها القديم. لكنى كنت منغمسةً فى متاعبى. وتؤوى ثُلاثتَنا هذه الغرفةُ الصغيرة. كنتُ أطمع لابنتى أن تكون شيئاً، شخصاً شريفاً. والضغط الآن أن تجدى المال... تدركين المعنى. أحسن الأحوال، نادلة بملهى جاز ليلىّ. أسوأ

مرسمها، هذه الشقة، كلّ صباح، تشتغل ساعات ثم ترجع ظهراً. نراها بخير بعض الأيام. وفى الأخرى تغرق فى عالمها، تكلّم أشباحاً وترى أطيافاً.

هدأت العجوز. مالت للوراء بالأريكة ثم أغمضَت عينيها. ظلّت هكذا زمناً فظننتُها راحت فى النوم.

★★★

أطراف أصابعى باردة برغم الحرّ.

سألتها: مَن أبى؟

ظلّت ساكنة، عيناها مغمضتان. لماذا تسألين؟

هل كانت أمّى تعرف تشى جيفارا؟

فتحَت المرأة عينَيها واستدارت.

نظرتُ عبر الغرفة. هل كان يجيء هنا؟ فى هذه الغرفة؟ هل رسمَته؟ أين رسوماته؟ أعرف أنها رسمته كثيراً.

نهضَت المرأة من الأريكة بمشقّة ثم سارَت إلى النافذة.

قالت بعد برهة: كانت أمك تعشق جيفارا، آه، كما عشقناه جميعاً. لكن من بعيد. ودارت نحوى العجوزُ، داكنةً إزاء نور النافذة. لقد عشقه الكثير، رجالاً ونساء. الكثير. لكن أمك لم تتعرّف إليه مطلقاً. وإلا أخبرتك. افهمى.

ابتعدَت المرأةُ عن النافذة. صبّت ماءً بوعاء صغير وضعته على السخّان الكهربىّ. وحين غلي، قلّبت القهوة. عادَت بكوبَين متّسخَين.

سلّمتنى قهوتى فلاحظتُ بقعةَ دهانٍ أزرق تحتَ أظافرِ أصابعها. تتبّعَت عينَىّ، ولم تفُه بشىء.

واصلَت العجوز: صعُبَت على تريزا الحياة، فتخلّت عن منزلها. لا مزاد للممتلكات هنا، كما تعرفين. وابتسمَت. كلّ شىء وقتها كان معروضاً للمزاد. لا أعرف من يسكنه الآن. تذهب ابنتى إلى ذلك الحىّ أحياناً. لكنى لم أعُد أبداً.

قالت المرأة: لماذا؟ سألتُ نفسي أيضاً. فالطبيعيّ أن نحسّ بمسؤولية. كما أُسِفتُ على نفسي. أسفٌ لم أحسّ به من قبل، ولديّ الآن مأساة فظيعة وأنا وحدي معها. ومع مضاء الأيام بدأتُ أبكي ولم أستطع التوقّف. فلم يكن البكاء عليها فحسب بل على كلّ ما لم أُخبرها إياه. بكاءٌ على امرأة جميلة حطّمَها الأمل.

شردتُ ببصري. وقد رسَخَت الظهيرة أخيراً.

كانت تتكلّم عنكِ. أرادت أن تكوني على ما يرام.

هل ندمتِ؟

تأوّهَت العجوز وهي تقف. كانت أمك منشغلة كثيراً بعملها. وأفكارها. وقد هجرَت آخر الستينيات موضوعاتها المبكّرة وبدأت ترسم صوراً مثيرة عن جيفارا. تُمضي ساعاتٍ تمحو وتُعيد الرسمَ، تضع طبقاتٍ من اللون. وحين عجزتُ عن جلب الطعام أو الوقوف بطابور لإحضار شيء، صرتُ أجلس وأراقبها وهي ترسم. كان زماناً سعيداً. برغم هبوط الحزن عليها منذ موته، كان بحركاتها شيءٌ براق. وظلّت ترسم يوماً بعد يوم.

نظرت إليّ العجوز. قالت: آه، أنتِ على حق؛ فقد رسَمَتْه كثيراً. تركت وراءها عشرات الصور. وأضافت: لكن معظمها راح.

توقّفتُ. لم أقل شيئاً.

ثم قالت: سنتناول شيئاً. من دون الدولار في هذا البلد لا نفعل شيئاً. شوفي دفتر توفيري؟ لا رصيد. لا يستخدمهُ أحد. أدفع لصبيّ كي يجلبَ القليلَ الذي نحتاجه: حفنة أرز، بعض الخبز. أمر لا يستحقّ إحضاره بنفسي. فماذا يُفترض أن نفعل؟

توقّفَت المرأة ثم تأوّهَت. سارت إلى اللّوحات. قالت: دأبت ابنتي ـ منذ أشهر ـ على أخذ لوحات جيفارا إلى الساحة، حيث يتجمّع باعةُ الكتب. باعت الأولى لألمانيّ بخمسين دولاراً. تخيلي؟ خمسون دولاراً؛ ثروة. وقالت إنه لم

يتردّد، تناول من محفظته المبلغ كمن يدفع ثمنَ لبان. ثم ذهبت ابنتى بلوحة أخرى وطلبت مائة دولار. وبيعَت أيضاً. وهى تبيع الآن بمائتى دولار، ويشتريها السياح.

رفعَت المرأة قدمَيها، ولاحظتُ حذاء ركض جديداً ماركة Nike فابتسمتُ. قالت: لكن المال يذهب غالباً للطعام. وندّخر. فمن يضمن الغد.

كانت المرأة تتكلّم بانفعال أكثر من وقت الظهيرة، ثم هَمدَت فجأة. إن أحببتِ خذى لوحةً، طبعاً... على الرحب والسعة. وبدأت تسير ذهاباً إياباً، وهى تشير إلى هذه أو تلك.

هل رسمَت صورةً لنفسها؟

هزّت المرأة رأسَها. ثم سارت إلى مجموعة النافذة. مسكَت الأخيرة أمامي: آه، هذه هى منعكسة بالزاوية. وكما ترين بنفسك، الشبهُ صعب.

أخذتُ اللوحة منها.

هل بقيت لوحاتٌ من جيفارا؟

وقفتُ أنتظر.

قالت: القليل. وأضافَت بعد لحظة: عندى تخطيط مبدئيّ، رسمَته بالرصاص والفحم.

فتحَت خزانةً وبدأت فحصَ الأوراق داخلها. فارتحتُ فى الأريكة مع صورة لأمي. لا أستطيع توكيدَ لونِ شَعرها. فحرّكتُها للأمام والوراء بزاوية ومسافة قد تجعل وجهَها أشدّ وضوحاً.

بعد لحظاتٍ جلسَت المرأة جانبى فى الأريكة. فكّت ورقةً بيضاء وسلّمتنى إياها.

وأنا أرحل، ضغطتُ على مالٍ فى يدها. أغمضَت عينيها ثم خفضَت وجهها.

★★★

طرتُ إلى ميامى ليلةَ الأحد. دار الطيار فوق المدينة، صمتٌ مبشّر بساحة صراع الديكة. تحتي، تلمع أنوارُ المدينة بين العتمة. وفى كلّ مكان سحبٌ تملأ سماء الليل. كان الهبوط سيئاً وعانى منه كثيرون. لامسَت الطائرة الأرضَ أخيراً بقوة فتحَت الصناديقَ أعلى الرؤوس، فانسكبَت حقائب السفر والسُترات على الممرّات مما استجلب عدداً من الصرخات العصبية، ثم بدأت الطائرة تدرجُ مع تصفيق مريح.

انتابت المدينةَ، كما علمتُ، نوبةٌ متردّدة من حمّى الأعاصير؛ فتخلّعت بيوتٌ وواجهاتُ محالٍ. عزمتُ على تجاوز السوبر ماركت، وقد أتناول ما بثلاّجتي. أنصتّ إلى الريح تلك الليلة وأنا أفكّر فى تريزا؛ وظننتُ لحظة قبل غمضِ عينَىّ أن الجوّ قد عكّر مشهدى الداخلىّ.

★★★

بعد أيامٍ مرت العاصفة، فخلّفَت وراءها مزقاً من السحبِ نتيجةَ منخفضٍ استوائيّ معتدل. وفيما تلى من أسابيع تحمّلتُ أشدّ إجهادٍ عرفتُه فى حياتى. عجزتُ أياماً عن العمل. فرقدتُ فى الفراش يوماً بعد يوم، يمسك بى الحزنُ كما لم يعهده المرء، فلم أجرّب شيئاً قريباً من اليأس. أحسّ التعب ببساطة. كأن العالم حولى فى قبضة مرضٍ فظيع، يرقد الآن جنبى ليستنشقَ نفَساً موهناً. وأخفق تغريدُ الطائر المحاكى عند نافذتى فى إثارتى؛ ولم تُجد نفعاً لى ظلالُ السحب. أرقد فأتخيّل نفسى حيواناً أو حتى حشرة، لا أرغب فى شىء، لا أحلم بشىء، لا سعيدة ولا تعيسة، فقط نوع من الترقّب.

ولأن لى أصحابا مقرّبين، مضت حالتى بخير. وبانقضاء الأسابيع والأشهر تحسّنتُ تدريجياً، جعلنى ضوء الشمس أدفأ ثانية، وصارت الأوراقُ التى فَضّضَها المطر أجمل.

★★★

حين بُعِثتُ أخيراً، كان منتصفُ الخريف والنهار أقصر. صمّمتُ على الرحيل غرباً. وفى آخر لحظة ألغيتُ الرحلة واستبدلتُ بها أخرى إلى خليج سبستيان، وكنتُ أزوره قبل بداية حياة السفر. جلستُ على الشاطئ أخطّط لرحلة أخرى إلى كوبا. رحلة رسمية للبحث عن شهادة ميلادي. قد أخاطبُ مسؤولين فى الحكومة. أمرٌ بسيط منطقيّ، لا أعرف لماذا لم أفكّر فيه قبلاً. وبعد عودتى إلى ميامى أرجأتُ الخطّة. حدّدتُ مواعيدَ لرؤية إلينا ود. كربالو ثم ألغيتها. وكلّما فكّرتُ فى مطاردة حقيقة الحكاية شعرتُ بزحف الإجهاد وهو ما أفرّ منه. فصمّمتُ ألاّ أفكّر فى تريزا، بل وأدفن أوراقها. لففتُ رسمةَ جيفارا بالفحم وأخفيتها وراء ملابس الشتاء. بعد عام من الرحلة الأخيرة إلى كوبا، صدّقتُ عقداً مع شركة الهاتف، وركّزتُ جهودى فى كتابة تقارير مشتركة ومقالات صغيرة، على أمل نسيان صندوق الذكريات الغريبة التى أورثتنى أمّى إياه.

★★★

ومرّة تشبثّت بى فكرةٌ، فقد يتآمرُ العالمُ المحسوسُ ليمسكك فى قبضته. فيذكّركَ كلّ شىء – غصنٌ أخضر، ظلّ سحابة – بحبيب. وهكذا صرتُ مع حكاية تريزا وذكرى مَن أحبّتهُ.

حلّ الشتاء فى مانهاتن، فدخلتُ مكتبةً كى أهربَ من البرد. اشتريتُ وحين تجهّزتُ للخروج وقفتُ لدى باقة بطاقاتٍ للإجازات. اسمها "أهلاً برأس السنة"! وعلى خلفية مزيّنة بشجر الزيتون كان الوجه الشائع، شَعر داكن معقوص، نظرة ثابتة، وفوق العينَين الصافيتَين قبعةُ سانتا الحمراء فى بيضاء موسومة بنجمة القائد.

وجدتُ أني، والأسابيع تمرّ، لا أستطيع الفرارَ من وجهه. رفعتُ بصرى إلى لوحةٍ تجاريةٍ كبيرة فصادفتُ عينَيه فى إعلانٍ عن ملابس. أدرتُ سيارتى فى النور لتتبّع رجلٍ بسيارةٍ حمراء عليها غطاءٌ قابل للطيّ وقد أيقنتُ أنه هو. كما ضبطتُ نفسى أحدّق ذاتَ يومٍ فى ولد داخل "المول" كان يشبه جيفارا الصغير بصورة قَصصتُها من كتابٍ فحاقَ بى تعليقُ غاضب من امرأة أظنّها أمّ الولد. فعزمتُ أن أكفّ عن تفحّص أوجه الناس لتبيان أثر منه، وعندئذ بدأتُ أتعرّف عليه فى قوسِ نخلةٍ مجيدة، بوجهٍ حجريّ مقام أعلى حائط.

صرتُ أراه فى الأماكن الأليفة وغير الأليفة، ظننته يفتّش عنى سراً؛ فبتُ أتساءل بينى ونفسى إن كان الموتى لهم ذكريات.

★★★

كنتُ فى باريس منذ أشهر، للتعاقد على كتابةٍ عن مستقبل أو عدم مستقبل تقنية الألياف العصبية.

وقبل رحيلى بيوم إلى الولايات المتحدة، تجولتُ فى حيّ أكّدت لى صديقة بالفندق أنه يضمّ أهمّ محال العاديات. سرتُ من محلّ إلى آخر، وسط مكاتبَ لامعةٍ ولمبات مموّهة، أبذل أقصى جهد لأكون مهذّبة. قضّيتُ ساعاتٍ أهيمُ بين المحال. وبرغم أنها نظيفة آمنة إلا أنى خرجتُ من آخرها خائبةَ الأمل. محال منظّمة فى جانب المدينة الأنيق، مرتّبة برائحة منعشة، لكن لم أجد فيها ما يثير انتباهى ولو من بعيد. وحين أوشَكتُ على العودة إلى

الفندق، فقد جعتُ وعليّ حزم أمتعتى ارتقاباً لرحلة العودة باكراً، قرّرتُ دخول شارع ضيق. قرار اعتباطي، فالشارع مثل شوارع أوروبا الهادئة، يضمّ أبواباً خاصة لبيوت خاصة. لكن الشمس المشرقة بآخر الشارع فوق حصى الأرصفة منحته جمالاً بدا من الفظاظة التخلّى عنه.

سرتُ وهلة، أتجاهل تقريباً ما ينتابنى من قلقٍ زاحفٍ دائماً آخر أيام أية رحلة. قرب آخره، حيث يستحيل الشارعُ إلى طريقٍ أعرض، رأيتُ واجهة محل مكوّم فيها كتب بنية بورق أصفر، تبدو فى فوضى خدعتني. ومع أنه محل معتم إلا أنى تريّثتُ زمناً قبل أن أعرف إن كان مغلقاً. ثم قرّرتُ دفع الباب قليلاً، ولدهشتى فُتح. حين تكيّفَت عيناى لاحظتُ عجوزاً إلى مكتبٍ فى الخلف. فأومأتُ إليه. المحلّ رثّ أكثر من الباقي، وخلفَ مكتبٍ ضخم أسعدنى وجود صندوقَى كرتون بتقاويم سنوية وأغطية مسجّلات وصور أبيض وأسود. حين أمضيتُ بالمحل حوالى ساعة، نهض العجوز - سمعتُ حكّة كرسيه بالمحلّ الفارغ - فوقفَ جنبي. راقبنى وأنا أفحص الصور ثم قال إن كانت هى الصور التى أودّ رؤيتها، فلديه صندوق آخر. فتح درجاً فشدّ منه باقاتٍ من الصور السائبة، بدأ يرتّبها فى توافق طفيف برأس المكتب القديم. بدت معظمُ الصور من الخمسينيات، تحكمُ عليها من طرزِ الفساتين والشَعر، ثم شدّ مجموعة أخرى بدَت أقدم، يعود تاريخها إلى العشرينيات، فرشَ الصور البنية الباهتة تقريباً، وكانت لنساءٍ بفساتينَ محبوكة وقبعات بعيدة عن موضة زماننا، فكأنى أتساءل عما يربطنا بالماضى دائماً.

رحتُ أتصفّح الصور فى صمت: أوجه الرجال المعتمة، خدود الأطفال المنفوخة، تحديق تاجر ماكر، عقص شَعر فتاة جميلة. وقف جنبى ثم قال: يعمل المصوّرون بكدّ مع أنوارهم وكيميائياتهم من دون أن يدركوا أنهم عملاء للموت.

حين درتُ قال، بعد فترةٍ: كان رولان بارت، وهو كاتب فرنسيّ، على حقّ. ففي زماننا يبدو أن الموتَ استراح أكثر في الصور. حدّقتُ فيه لا أدرى ماذا أقول. ارتجف كالمحرَج فجأة. قال: انظري، وهو يوجّهني بإصبعه. عندى صورة قديمة جداً هنا.

تبعته إلى مكتبه، حيث فتح لمبةً فوقه وفتح خزانة قريبة. شدّ علبة زجاجية فمسكها بيد مرتعشة. منظر حديقة ملتقَط كما يبدو من شُرفة بناية. قال: عالم الصور الأقدم. وحين رفعتُ حاجبَيّ أضاف: آه، ليست هذه طبعاً؛ فهى مُستنسَخ عمره عشرون عاماً. أصلها فى تكساس الآن. يحتفظون به. أظنّ يقولون: منظر من نافذة في جراس. التقَطَ الأصلَ فى ١٨٢٦ فلاّح اسمه جوزيف نكفور نيبك. استخدم كاميرا غامضة، كانت مستجدّة حينئذ، معدلة بشريحة قصدير عليها نوعٌ من النفط.

نظر العجوزُ إلى الصورة وأعاد النظرَ إليّ. مدهشة، هه؟ يتساءل المرء عن تفكيره وهو يغسل الشريحة كى يرى ما فعل. يُفترَض أن نيبك كان فناناً محبَطاً. سرّه أن يبدعَ شيئاً بعقله. أشار العجوز إلى رأسه وضحك. لكنه لم يستطع باختراعه لفتَ انتباه الجمعية الملكية. ثم استرعَت الشريحةُ بعضَ الاهتمام، لكنها لم تُعرَض إلا ١٨٩٨ ، وواصل العجوز: سقطَت الشريحة فى غموضِ أشياء لم نحدّدها، وفنِيَت فى أوراقٍ قديمة، اختفَت فى يوميات وأزهار بينها مضغوطة. وفى ١٩٥٢ استسلم العلم للعالم كأكثر من خيال مرعب، وحين اهتمّ مؤرّخ بخرافة شريحة القصدير وجد الصورة المنسية من زمن طويل.

واصل العجوز بنبرة كئيبة: مع ذلك فالصورة الأصلية بيضاء تقريباً. فقد التقطت تحت نور خاص بزاوية ثلاثين درجة عمودية، أو كاد يشحبُ مشهدُ الشريحة للعدم.

أعدتُ للعجوز الإطار وشكرته، من دون أن أدري، بالإسبانية. رفع حاجبَيه: أنتِ إسبانية. فتردّدتُ لحظة قبل الردّ: لا، كوبية.

كوبية! آه، كوبية فاتنة. بلدى المفضّل. آه. انتظرى هنا.

واختفَى فى غرفة خلفية ثم طلع بصندوق صور أخرى. تصفّحه، لكن المناظر هذه المرة مألوفة: نخيل ملكيّ يحاذى الطرق، رجلٌ على جرّار، ورقٌ مورق بالأبيض والأسود. وحين لاحظ اللذّة التى منحتنى إياها الصورُ اختفَى مرات بالغرفة الخلفية، وكلّ مرة يطلع بحفنة صور. نتصفّحها معاً. كنتُ على وعى بالزمن، فالعودة لحزم حقائبى تقلقنى، وفجأة برزت صورة من كومة الطاولة خطفَت عينى.

فمددتُ يدى وحفرتُ الكومة حتى وجدتُها. فمسكتُها تحت النور.

★★★

وقفتُ بعض الوقت أمسك الصورة النحيلة بين يديّ. كنتُ أخشَى فعلاً رحلة العودة: صوتُ المحرك خلفى، الإقلاع، الخفّة المزّقة فجأة، والسقوط بعيداً عن الأرض.

وهذه الصورة الآن، بعيداً عن الوطن. لقد سرتُ مع الأشباح. لكنه صامد مع الأبدية، جندىّ شاب يتشوّق لتسجيل العالم، يداه فى خفّة أمام الكاميرا، وعيناه تتطلّعان أمامه.

سلّمتُ الرجل نقوده، لاحظتُ برودةَ يدَيّ حين صادفتُ يدَيه. قلتُ بعد لحظة: ذكرى لأمي. فمال قليلاً برأسه، لكنه ظلّ يتطلّع فيّ. ابتسم وأومأ. تسلّم نقودى ونفحنى الباقى ثم لفّ الصورة بعناية، دسّها فى حافظ بلاستيكىّ ثم غلّفها قبل إخفائها تحت طبقة فوق طبقة من الورق البنىّ.

★★★

كادت الظهيرة تتلاشَى بوصولى الفندق. فتحتُ نور المكتب ووقفتُ عند النافذة أرى الشارع تحتي. ظننتنى أسمعُ عزفاً من الراديو. وبسبب حوارى مع العجوز أو العزف الواهن المنجرف من الحائط، فكرتُ لأول مرة من أشهر فى جدّي. تذكّرتُ أغنية كانت تُعزف منذ سنوات ونحن نجلس بالشرفة معاً:

أراك فى أحلامى،
وكل آهة تعيدنى إليك.

وكان جدِّى مع صمته ولمحاته الهادئة. عرفتُ القليل عنه، وضاعَت سنوات الفهم.

وقفتُ جنب النافذة إلى أن هلّت أنوار الشارع تحتي. راقبتُ زوجين يقفان تحت يافطة فى الشارع لتبادلِ قُبلة. يركض ولدان لتقاذف كرةٍ بينهما. بعده سكون. فقد فرغ الشارع. درتُ عن النافذة عائدة إلى الغرفة الصغيرة، وهى الآن صفراء دافئة من أزرق الشارع المتذبذب: وببطء، لم أعد أفكّر فى شيء، فبدأت حزم حقيبتي: ملابس سفري، كتبى، صفحات أوراق سائبة. انتهيتُ فرقدتُ على الصورة الملفوفة بإحكام لرجل يقف وحده مع آلة تصويره، فلم يكن المستقبل بعدُ شريحةً داكنة؛ ذلك الغريبُ الوسيمُ فى حلمٍ مختلف، وقد يكون والدَ قلبى.

المؤلفة

آنا ميناندس :

روائيـة كـوبيـة ، ولدت عـام ١٩٧٠ ، وتعـيش فى المهـجر الأمـريكى ، لوس أنجلوس، كـاليفـورنيـا ، مـع والديها . تعمل صحفية فى جريدة (ميامى هيرالد). أصدرت عام ٢٠٠١ مجموعة قصص (فى كوبا كنت راعياً ألمانياً) ، نالت بها جائزة أفضل كتاب من (نيويورك تايمز) . كما نشرت عدداً من قصائد النثر في الصحف الأمريكية . قامت بعدة رحلات إلى الهند وأوروبا وعاشت فترة فى إسطنبول. ولها كتابان آخران : (الحرب السعيدة)، (وداعاً يا بلدى السعيد).

تعتقد أن الكوبيين شعب عاطفى ، لذلك تشيع لديهم روح السماحة ، ويندر أن تراهم فى حال من العنف . وترى الفضل فى امتهانها حرفة الأدب يعود إلى أبيها الذى أوصاها ذات يوم بكتابة بعض من ذكرياتها عن البلد الأم ، كوبا ، حتى لاتنسى جذورها. أما عن وجهة نظرها السياسية ، فتقول «حين تتكلم عن السياسة ، فثمة ثقافة : أنا على صواب وأنت على خطأ ، ويجب سجنك ، وهو أمر شبيه بالطاعون» ، وترى أن كاسترو عاش أطول فترة فى الحكم ، مع أنه أثار الكثير لمعارضته .

تقدم ميناندس فى كتبها صورة واضحة عن الحياة فى كوبا ، من وجهة نظر مهاجر طبعاً ، أما عن رواية «في عشق جيفارا» فتقول إن الناس يظنون أن البطلة هى أنا ، وهو أمر يسعدها ، لكنه يرعب أمها ، حيث رأوا فى هذا الصوت ما يمثلهم . فلم تقصد أن تكتب حكاية رومانسية ، لكنها مبحث تاريخى عن المثال والأحلام وللاقتراب من أهلها الحقيقيين فى كوبا ، ولو من بعيد .

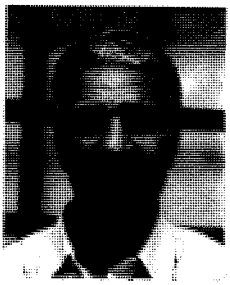

المترجم

محمد عيد إبراهيم :

شاعر ومترجم مصرى ، مواليد ١٩٥٥ ، القاهرة . خريج قسم الصحافة (كلية الإعلام بجامعة القاهرة ١٩٧٨) . من جيل السبعينيات الشعرى ، أسس مع رفاقه الشعراء سلسلة (أصوات) ، ومجلة (الكتابة السوداء) . أنشأ سلسلة «آفاق الترجمة» بهيئة قصور الثقافة وعمل مديراً لها ، وأنشأ سلسلة (نقوش) للفن التشكيلى (مع الفنان الليبى عمر جهان) بهيئة قصور الثقافة وعمل مديراً لها ، كما عمل مديراً تنفيذياً فى «المشروع القومى للترجمة » بالمجلس الأعلى للثقافة فى مصر .

تنشر أشعاره وترجماته ومقالاته بمعظم الصحف والمجلات والدوريات المصرية والعربية . ترجمت أشعاره إلى أكثر من لغة . يدعى إلى مهرجانات الشعر العربية والدولية . وأعماله ، دواوين وترجمات ، منشورة فى شتى دور النشر العربية .

من دواوينه : فحم التماثيل ، الملاك الأحمر ، خضراء الله ، السندباد الكافر ، عيد النساج .

من ترجماته الشعرية : قصائد حب (آن سكستون) ، نهايات (ديريك والكوت) ، الهايكو ورحلة حج بوذية يابانية ، ديوان الشعر السويدى ، «جمهورية الوعى» «مختارات شعرية» ، «النمر الآخر» (أشعار بورخيس) .

من ترجماته الروائية : جاز (تونى موريسون) ، فالس الوداع (كونديرا) ، فنانة الجسد (دون ديليلو) ، جوستين (الماركيز دو ساد) ، بنت مولانا (مورل مفروى) ، جنوب الحدود (موراكامى) ، مثل ترنيمة (بيرومبادافام سري دهاران) .

من ترجماته النقدية : الخلاص بالحرية ، الضوء المشرقى ، نبوءات (دافنشى) ، مقدمة لقصيدة النثر ، ثورة ما بعد الحداثة (إيهاب حسن) . يعمل مستشاراً لتحرير مجلتى : انتهاكات (التونسية) ، توليبس (الأمريكية).

في عشق جيفارا

تدور رواية «في عشق جيفارا» للروائية الكوبية «آنا ميناندس» ، حول فكرة عجيبة ، حكاية داخل حكاية ، حيث تبدأ البطلة مع صندوق ذكريات ، تختفى فيه فترة ، لتظهر بطلة جديدة ، هي أمها الفنانة ، التي عاشت حياة عاطفية مع أشهر أيقونة ثورية فى العالم الثالث ، إرنستو تشى جيفارا، إلى أن تختفى هى الأخرى ، لتظهر من جديد البطلة الأولى ، وتعيش حياتها الثانية ، لكن بحثاً عن صاحبة صندوق الذكريات .

رواية تأسر الألباب ، إذ تأخذك خلال فترة الخمسينيات والستينيات فى كوبا ، عبر غراميات سحرية ، مشوبة بالغموض ، لاتعرف فيها عنصر الخيال من عنصر الواقع ، كما تغص الرواية بأشكال من الوعى المعرفى : التاريخى ، المكانى ، الثقافى ، الإنسانى ، وحتى الحسى الإيروسى . كما لا نغفل النمط الشعرى فى السرد ، حيث نرى جزءاً من قصيدة لنيرودا معلقاً فى قميص الفتاة الصغيرة عند هروبها مع جدها ، كذلك عناصر مبثوثة من شعرية لوركا هنا وهناك ، بألوان ساطعة من المشاعر .

«في عشق جيفارا» ليست رواية تاريخية ، لكنها محاولة لكسر عملية «تسليع» جيفارا ، بإعادة بعث أسطوريته من جديد ، وإن بشكل فنى . يمكن القول إنها رواية عن أسطورة الحب ، خاصة حين يكون مدمرا ، وبلا أفق أو نهاية ، كما هى رواية عن سحر أو قوة الفوتوغرافيا حين تتملك حياة امرأة ، فلا ترى بديلاً عن الواقع إلا وهم الواقع !

روايات مصرية للجيب

إنها بالفعل شيء ملائكي رائع

تذوق متعة القراءة مع
أحلى القصص، وأجمل الروايات